رواية

ميم للنشر

سفيان مخناش

لا يُترك في متناول الأطفال

مكتبة نوميديا

لا يُترك في مُتناولِ الأطفال

لا يترك في متناول الأطفال/ رواية
سفيان مخناش/ كاتب من الجزائر
الطبعة الأولى: 2011
الطبعة الثانية : 2013
لوحة الغلاف: الفنان Alex Alemany
حقوق الطبع محفوظة

دار ميم للنشر، الجزائر.
E-mail: mim_edition@hotmail.fr

All rights reserved: No part of this book may be reproduced, stored in aretrieval system, or transmitted, in any form or by any means wlthout prior permlssion in writing of the publlsher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع القانوني: 2011-5350
ردمك: ISBN: 978-9947-863-42-8

سفيان مخناش

لا يُترك في مُتناولِ الأطفال

رواية

«أحبب حبيبك هوناً ما.. عسى أن يكون بغيضك يوماً ما.
و ابغض بغيضك هوناً ما.. عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

لا أريد من الرسول معجزات.
لا أريد من الرواة الكتب الصِّحاح.
هذا الحديث فقط..
يكفيني لأشهد بأن محمداً.. نبيّ.

صلّوا على رسول الله

إهداء :

إلى من نحت في ذاكرتي كلمات لن تمحى مهما تعاقبت عليها الحضارات..
إلى التي تواطأت مع القدر و قدماني قربانا للحياة..
إلى مرآتي.. التي تُحمل في اليد والتي تُعلّق على الجدران..
إلـــي مرآتي في الوجود.. الذي حمله قلبي واليوم معلّقا على الجدران..
إلى الذين مســحوا دموعي، أقول لهم لولا تقشير البصل ما بكيتُ..

أبي، أمي، مرآتي.. مايكل جاكسون، إخوتي..
كم أحبكـــم.. و تقبلوا هذا رشـــوة منـــي للأيام عساها تحبنـي كما تحبوننـي..

سفيان

تقديم:

مسـؤولية ورطـت بها نفسي.. لأني لم أكن أعلـم أن كل هذا الارتباك سـيولد مـن مجرد مزحة. يوم أطلعني الأخ سـفيان مخنـاش على جزء من هـذه الرواية كدت أقضم أناملي من شـدة العـضّ عليها عله يرأف لحالي ويكمل لي ما تبقى منها.

لم أصـدق نفسي لما وجدتني أعده بكتابة تقديم لهذه الرواية كهدية له من وقتي وأنا الذي ما عرفت يوما كان ملكا لي. و لو لم يهددني بإرسـالها إلى المطبعـة من غـير تقديم لما توقفـت كتابة هذه الكلـمات المعدودة عند الشهر الثاني.

لم أدرك لزاجـة خيـوط الورطـة التـي أنا بنسـيجها عالـق، إلا عندما حملت قلمي وعجزت عن فضّ بياض الورق.

ما عساني أقول؟

وهل ترك لي شيئا لأقوله؟

جـودة عملـه هذا – باكـورة مطبوعاتـه – جعلتني أتحـسر على باقي أعماله التي رماها لأنياب الدُّرج تنهشها الظّلمات. رجائي منه أن يخرجها إلى النور و لو على نفقتي.

حـرام لـو منعت رفوف المكتبـات من هذه الرواية (سـواء من طرف مؤلفها أو غيره)، فهذه الرواية عمل درامي مشوق، يستطيع فيها القارئ مشاهدة الشخصيات و الاستمتاع بالأحداث دون الحاجة لتحويلها إلى عمل سمعي بصري، ناهيك عن الميزة التي قلّما نجدها في الأعمال الأدبية الأخـرى، الميزة التي لولا يقيني بأن صديقـي يغلق هاتفه ليلا لاتصلت

به غير آبه بتأخر الوقت سائلا إياه إن كان يكتبني. فقد تعمد الكاتب أن يجعل من روايته مرآة تعكس واقع مختلف الشرائح الذي يصور جزءً ضئيلا من المعاناة اليومية، أو بالأحرى رحلة البحث عن فتات أمل في كومة يأس.. وحالما نتوقف يأتينا الأمل من حيث لا نحتسب.

صحيح أن هذه الرواية قصة حب غامرة ممزوجة بأحكام اجتماعية قاتلة تحدد المصير وتقيد الحر وتضرب أمامه أسوارا من المستحيل يضيع فيه الحب في كنف التضحية، وفي خضم ذلك يعشق الحب رائحة المستحيل وتقتله عفونة الخيانة ويلغي مواثيق الوفاء.

لكن وبطريقة مبتكرة - فهي ليست ثنائية الأطراف - استطاع الكاتب أن يمرّر مجموعة من الرسائل والكنايات، حيث لمس جل القضايا التي تهم الرأي العام والطبقة المثقفة: كالصحافة، الفن، الإذاعة، النشر، الإرهاب، فلسطين، حال العرب، الوضع الذي آلت إليه الإدارة والسياسة العربية عامة والمحلية خاصة،... كل هذا في قالب تشويق يجعل القارئ يتطلع دوما لما سيأتي في الجملة الموالية وفي الصفحة التالية، حتى يجد نفسه في نهاية المطاف غارقا حتى قفاه في ثنايا السطور. لكن بإمكان المؤلف إتقان هذا العنصر أكثر، أتمنى أن يحدث هذا في أعماله المقبلة إن شاء الله..

أما عن الجرأة، فهنا الكلام يطول. وما أريده للقراء أن يعرفوه أنني حاولت عبثا إقناعه بحذف بعض الجمل وعدم التعرض لبعض الأفكار أو تغيير بعض المصطلحات التي ربما هي ليست في متناول فهم الجميع، فأجابني بأنه لن يقبل بأيّة مساومة على قلمه من عند أيّ كان و لا يريد من الآخرين مسك يده و يخطون بها ما تهوى أنفسهم، حذفهم لأفكار وأخرى يكتبون..

ولي نبوءة بأن سفيرنا (وليس سفير القمر لأننا نحن بحاجة إليه) سيخرج بهذه الرواية إلى الحياة والساحة الأدبية باندلاق.. فهنيئا للجزائر بهذا المولود.

و ما بقي لي أن أقوله الآن سوى أن تسامحني أيها الغالي على عدم تلبية رغبتك والمتمثلة في حاجتك إلى من ينقدك وليس من يمدحك.. لكن هذا ما استطعت.. فإن أردت وضع هذا التقديم سأشكرك، و إن لم تضعه سأدعو الله أن يبعث لك من له لسان حار و قلم بتّار..

وأرجو أن تتقبل نصيحتيَّ هاتين:

الأولى: أن تحذر. و أنت تعلم جيدا ماذا أقصد بهذه الكلمة.

الثانية: ألا تنسى و أنت تحفظ حقوق التأليف أن تسجل كذلك اكتشافك لمرض جديد يصيب الأحلام وهو «مرض الكوفي كوجيا».

وفي الأخير الرجاء من الدفعة الأولى للقراء عدم التسرّع في الحكم لعدة أسباب.. و أن تنفعوه بآرائكم و صالح دعائكم، رغم أني متأكد أنه بعد قراءتكم للرواية سوف تؤثر على جلّ قراراتكم خصوصا تلك التي أصدرتموها في حق «الأطفال».

لا يترك في متناول الأطفال حقا فظيع..
وحقا لا يترك في متناول الأطفال.

الأستاذ: فارح مروان.

20-04-2010

لم يبق لي سوى أيام معدودات حتى أتلقى فاجعة لن تهز كياني الذي فطمته منذ عصور على وجبة الانكسارات، أيام مدونة على كاشف قنبلة موقوتة توحي بالعدّ التنازلي لانفجار قد يأتي على أخضر الأحلام ويابس الأسرار.

لكني سأبقى صامدة لأني لازلت أعمل بنصيحتك، لطالما كنت تردد لي بمناسبة أو بغير مناسبة «استنّاي خير من أن تتمنّاي، و تمنّاي خير من أن تقطعي ليّاس».

بكلامك هذا أصبح جسدي يأبى الانشطار وتعوّد قلبي على الانفطار.

لم أشأ إزعاجك على حساب ضيق صدري، أردت فقط أن أسابق الزمن هذه المرة وأصفع نفسي قبل أن يصفعني.

شجاعة من المرء.. أو ربما هي كرامة، لكني ما عدت أتصف بالثانية ولا أعرف للأولى طريقا.

تعرفني كاتبة فاشلة تهوى النّواح و تشتهي النّباح، فلولا قلمي الذي يغريني بمداده و دفتري المُسنّ الذي ترعرعتْ فيه أسراري لما رجعتُ للكتابة، و لما عكّرت بياض هذه الصفحات، و لما نشرت غسيل الذكريات.

أعدك أن أتوقف فور انتهاء المداد.

أعدك أن أنتهي فور توقف دفتري عن تهديدي بتقسيم الإرث على أبطال رواياتي.

أعدك بأن أعمل من الآن فصاعدا بنصيحة من سالت عليه أودية من الحبر أكثر مما أساله هو في رواياته: «لا تكرسوا حياتكم للأدب إلا إذا كنتم فدائييه، و لا تقتلوا أرواحكم به إلا إذا كنتم مجانينه».

سمعا وطاعة يا نجيب محفوظ.

فلن أكرس حياتي لأدب جعل مني انتحارية تشتهي قتل الأرواح برصاصتين: واحدة فوق الراء، والثانية تحت الحاء..

أما الجنون فيكفيني جنون الصدمة، جنون الأحلام، و جنون (البشر) البقر.

وما نكتب نحن معشر الكتاّب إلا لكي لا نترك الأقلام والدفاتر سلعة راكدة لا تجد من يشتريها، و لنؤرخ الأكاذيب و لنلفق الحقائق.

نَكذب لنصدُق، و لا نصدُق لنكذب..

نكتب ونبدع و نحن نعلم منذ كتابة الحرف الأول أو بالأحرى منذ نية الكتابة، أننا منذورون للخسارة، نموت جوعا إذا فشلنا و نصنع ثراء غيرنا إن نجحنا، ننفق عشرين بالمائة من وقتنا في الإبداع و الثمانين الباقية في الدفاع عن هذا الإبداع، و مائة بالمائة من طاقاتنا لنكون مراوح للكسالى، و نفهم أمة اقرأ التي لا تقرأ..

نعرض حياتنا كنشرة جويّة، حتى لا يحاول الربابنة مجددا شق الأخاديد على أجسادنا، و الغوص داخل جراحنا.

أكتب هذه المرة لأني شفيت من الجرح الأول دون أن أخيّر نفسي بين أن أنتظر شفاء ما تبقّى من جراح و أكتب عنها دفعة واحدة، فجسمي مطرز بها، حتى أصبحت لا أدري أهي جلود نلبسها؟ أو أجسام ونسلخها؟..

أم أتركها جميعا؟..

ربما قدري البقاء مكلومة باقي الدهر..

ننذِر كي نُعذَر..

لم تعد أجسادنا طاولات بمجرد أن يمسح عليها نادل تصبح مهيأة لحب جديد، صحيح أنه محي منها ما سقط عن حب قديم من قطرات، لكن من أين له بمنشفة تستطيع محو ما سقط منا من دمع و دم؟

اليوم تستطيع أن تموت يا دفتري الهزيل بطمأنينة، دون أن تخشى علي من ألا أجد من سأورثه أسراري، بإمكان الجدران و الأسوار و الأبواب أن تحتضن رواياتي.

مت لأني ما عدت اشتهي التخطيط و التأريخ و الكتابة..

مت وفقط..؟!..، لأني سأخبر هذا الفتى المهندم الأنيق، عن الذين مروا من هذا الطريق.

قبل كل شيء أريدك أن تؤرخ من بعدي هذا اليوم و تجعله عيدا وطنيا، و عالميا إن أمكن ذلك، و تطلق عليه اسم «يوم الاعتراف» وأتنازل لك عن براءة الاختراع.

لو كان لنا يوم في السنة نعترف فيه بكل شيء، لما مات الكثير بالأزمات القلبية، و لما تضخم عدد الكتب على الرفوف، و لما احتُلّ العراق..

أعترف أمامك، وأمام كل من كانوا يعرفونني على غير ما أنا عليه اليوم.

أنا اليوم لا أعدو أن أكون أكثر من مجرد قنديل بحر، يسبح فارغ الأحشاء، صفر الميزان، سريع الذوبان، لا يسأل نفسه تلك الأسئلة الوجودية: من أين جئت؟ و إلى أين أنا ذاهب؟

فإن قلت من أنا؟ أخشى من الجواب أن أكون نكرة، دون بطاقة هوية لا تقبلني الأوطان.

ومن أين أتيت؟.. من عدم، ومن ذلك أنا بكيت.

وإلى أين أنا ذاهبة؟ ما دمت أحمل قلبا كهذا، فيبقى مصيري مجهولا.

بزلّة سباحة، مسختني لعنة البحار من حورية إلى قنديل بحر.

.. أفهكذا تصنع لعنة الحب؟

عواطفي عواصف نثرتها على البقاع دون ملل، أضع واحدة هنا وأخرى هناك، كمن يلقي في النهر عدد خطاطيف إن لم تعلق بإحداها سمكة، علقت بأخرى.

لم تكن تهمني أيهم الأخطر، لم أسمها لا بغوستاف و لا بكترينا،

يهمني كم أسقط من الضحايا، كم أهدر من الحب، كم أوقد نيران العشق، كم أحقق من أحلام سئمت مرارا أكررها على مرّ الأزمان.

أشتكي -كبقية الناس- من قلب إذا نبض، أفرزت غددي تحذيرا للعقل، فأنا التي أثق بعقلي و هو الذي لم يغرر بي. فلماذا يا قلبي..؟ لماذا و أنت مجرد مضغة دون عظام تأبى إلا أن تواجه العظام؟

مثلك كمثل عصفور يريد المصارعة في حلبة الصقور.

تنويه:

بمجرد أن أبدأ بالاعتراف، احرص على غلق الباب. و عدني ألا تترك هذا الذي أسميته «مشروع» في متناول الأطفال. لقد أتعبني وأرّقني، واحدودب منه ظهري، في سبيل أن يصلك في قرطاس تعلم من خلاله أن امرأة كانت ستعيش لأجلك، ووقعت كدلفينة في شباك و لم تعرف منه الخلاص.

خذ هذا الكتاب بقوة، و احرص أرجوك ألا يقع بين يدي الأطفال، لا أقصد أطفالك لأن ليس لهم وجود، فلي علم أنك لا تشتهي البنين، ومرتاحة حتى من جانب أمهم، و ليس لي علم أهي التي أخذت مكاني أم أنا؟ لكنها في مطلق الأحوال مثلي: معدومة عقل و ناقصة دين...

هذا الكتاب ممنوع على:

- الأطفال مهما كانت أعمارهم و مقاساتهم و حتى ألوانهم و جنسهم، نحن في زمن يصعب فيه تحديد سن الطفولة و المراهقة و الشيخوخة، فلا غرابة إن وجدت طفلا في سن الثلاثين.

- الذين اقتصر تعليمهم على لقاحات الحفظ والتلقين فلا خير في متعلم لم يقرأ كتابا من غير ما تلقاه في المدرسة طيلة عقود، و في الأخير يحكم و ينقد بأن هذا جيد و ذاك رديء.

- غير المثقفين بالأدب، بالعشق، بالفن.
- دون أن ننسى أصحاب القلوب الضعيفة لما في النص من مشاهد يعتبرها البعض جرأة! فإن كانت كذلك فهي الجرأة التي لم تروها من قبل.

تحت طائلة المسؤولية.

أنا منذ أمد لم أكن أكثر من مجرد طفلة ساذجة، كانت تأكل الطعام وتسبح في الأحلام، كل شيء على الفطرة: دراسة و لعب.

لما بلغنا من العمر بضعة عشر، أصبح الذي كان مسطحا مدوّرا، نأخذ معنا في المحافظ الحب و الغرام بدل الدفاتر و الأقلام.. و ليست منا من ليس لها مُعجب.

معضلة الشعوب..

الشعب العربي بالخصوص، مرض الليبيدو يتفشى في صغاره وكباره، حتى في تماثيل الرخام، إن كنت من سطيف لا تجد للتحاجج من بدّ، يسكتونك قبل أن تبدأ الكلام بعين الفوارة، و أحيانا ينسبونها لك وإما ينادونك بـ«ابن عين الفوارة».

حسناء عارية رخامية بيضاء صاحبة كرامات و بركات، محج السائح والزائر وحتى المقيم، ساقية الظمآن، فاتنة الولهان. متموضعة وسط المدينة، تدير ظهرها للمسجد العتيق و كأن لسان حالها يقول: «لك دينك و لي ديني».

منذ الأزل وشساعة هضاب سطيف مختزلة في تمثال مغري ومنذ الأزل و التمثال العاري يعري واقع و أمراض السطايفي.

عرفتك و ثدي أمي لم يبرح فمي، أترصدك و أترصد أخبارك، وشمت على يدي اسمك، و فعلت كل التصرفات الطفولية الساذجة الغبية. لن ألوم نفسي، لأني كنت مجرد ممثلة تلعب ما يملى عليها من زميلاتها، بل ألوم نفسي على رفيقة السوء التي ماتت ومازلت أنا اليوم

أتخبط في براثن عبودية القلب..

هـذا يكفي بالنسـبة لـك أيها الجامعـي، قد كبرت و أنـا نضجت، لا أدعوك لقطفي ولا لتقبلني في سلة فواكهك، و لكن ستدعني أقتلك.

لا تخـف، فخاصية الإحياء و الإبادة سـمح لنـا بها الرب نحن معشر الكتـاب على الورق، نجعـل من الصفحات البيضاء مسـارح تدب فيها الحيـاة، و مقابـر لما تبقـى من الرفاة و من الشـخصيات ذكـرى و ماضي في طي النسـيان، رغم أنهم يشـاركوننا الأرض و الهواء و السـماء في هذا الزمان..

فـلا تخـف و لا تجزع، فإذا نظـرت إلى صوركم يـزداد إلهامي و يزداد نهمي في الارتواء من دمائكم السـوداء التي تسـيل من قلمي، سأذيقكم ضعف الحياة كما أذقتموني ضعف الممات.

إذن تفضل يا خاتم الأشقياء و العاشقين.

يا خاتم قلبي المفقود.

ادخل الصرح وتفرج على الرّكح وكن شـاهد عيان على ما سـيقع في المذبح.

الصورة الأولى:

«الـصـامـتـة»

الـقـصـة الـتـي لـم ولـن تـروى..

يـا مـن أجـهـض حـبـي.. You can never break me

إنها لك..، عذرا لأني أقصده هو، لم أتمالك نفسي رغم أنه الآن مجرد صورة، تصرفي هذا ليس بغريب، فهو الذي لا أملك نفسي أمامه، وقتها لم تكن نفسي لي أصلا، و هبتها له دون إرادتي و دون أن يدري، لا أملك أنفاسي حين ألقاه فهو سبب نقص عمري، أنفاسي و نبضات قلبي هما وحدة قياس عمري، لم يتبق لي الآن سوى بضع و ستون نفس أصرفها على مهل خشية الإنفاق و خشية الفراق قبل أن أنهي لك هذا الميثاق.

يا صاحب الصورة، أعذرني إن نشرت اليوم غسيلك، إنك تنظر إلي بوجه صفر التعبير، لا أفهم ما تقول؟ و لا أدري ماذا تود أن تقول، وجهك في الصورة على خلاف ما كنت أعرفك عليه، ويكأني لست أنا التي تعرف حزنك من فرحك، و تعرف ما تكتم و ما تقول.

و الآن أنا مندهشة، اندهاشي يوازي اندهاش العالم أمام الجوكندا..

أتراك ساخط عما سأفعله لأني سأفشي سرك؟ أم فرح لأنك أصبحت أخيرا بطلا لإحدى رواياتي؟ أم فخور لأنك جعلت مني كاتبة،وقود إلهامها هو أنت؟

في مطلق الأحوال و مهما كانت أجوبتك، فأنت مخطئ!، لأنك ما عشت يوما لتكون أنت، و ما أردت شيئا و كان، و ما قلت قولا و فعلت.

حينها رحت تمزق نصيحتي و لم تنتصح، أو ربما كنت أنا التي رميت بها في سلة عقلك المهمل قبل أن تفعل..، كم مرة قلت لك «كن أو لا تكن» و كم مرة رددت «Do it» لكنك لم تفعل..

***

لمجد.. دعني أناديك باسمك، أريد أن تسقط كل الأقنعة فالحفلات التنكرية موضة قديمة.

لم أعد أطيق استعمال الأوصاف فهي في معظم الأحوال منافقة.

احذر إن ناديتك يا حبيبي أن تصدق.

و لأحذر أنا من شتمك بوصف «الجامعي».

لا تستغرب فهذه الكلمة بعد عامين ستصبح شتيمة و يقال: «فلان جامعي حاشاك»..

إن هذا الذي أحدثك عنه، كان حبي له تراكميّ، لم ينشأ من أول وهلة كما حصل لي معك في وقت مضى، حبي له نتاج سنين من الإعجاب، عصور من الإشتهاء، أزمنة من الحرمان..

بعد نضجي، و بعدما مررت أنت كسحابة صيف في حياتي، احتل شعور قلبي، نفخ فيه نفخات جعلت نبضاته البطيئة تتسارع، و صفحات سجل حياتي تتتابع، كانت تلك أولى بوادر اشتعال اللهب، حيث كنت أنا فاعلته، حاملة حطبه، و موقدة شرره.

تفصل بيننا شجرة عظيمة، و كانت بيدي فأس صغيرة، تنقر صلابتها كمن يحفر بئرا بإبرة، لهذا طال معي الزمن لكي يكتشفني أو أكشف له من أنا؟

لو كان الحب من الطرفين لكان معيني على قطع الجذع مهما عظم، وحفرنا بالإبرة الجب، و وقعنا في الحب.

معرفته بي لا تكاد تكون أكثر من أني ابنة قريب له.

أتراه كيف كنت بالنسبة له؟ ابنته؟ أخته؟ أو..

لهذا كلما راودتني فكرة أني سأصبح محبوبته في يوم ما، أستفيق وبسرعة و أقول محال، كيف ستكون عاقبتي إن لم يردني؟ و ماذا سيقوله عني؟ لهذا لا ألبث إلا لحظات و أتنازل عن فكرتي.

هيهات... هيهات...، ما باليد حيلة.

في غفوة وجدت أعواما قد هضمت و الأحداث ما تطورت، فماسك دواسة الزمن في عجلة من أمره، قررت خوض التجربة مادمت في كلتا الحالتين مكللة بالخسران، لكن بطريقة أبقى فيها بأمان.

و مر الزمن و أنا أنظر إليه من بعيد، و الشيء الوحيد الذي كان يصلني منه هو اللامبالاة..وعدم الاهتمام.

لا...، بل تذكرت، لم أنس سلامه العابر للمسافات عند لقائي به في الزقاق أو الأعياد و المناسبات.

ترددي هذا الذي لم أجد له دواء، أحيانا أحبه و أحيانا أخرى أخافه.

يكبر في عيني لما ترتسم الابتسامة على وجهه الهادئ كمحيط أزرق وعينان مغرورقتان تتلألآن تغرق فيه جميع بواخري، و أنفر منه يوم يكون سيء الطبع مزمجرا فتثور فيه جميع براكيني.

***

«خير من أن تقطعي ليّاس»...

لولا هذا القول لعالجت إدماني قبل أن يستفحل في جسدي..

و لولا هذا القول لما شحذت همتي و بقيت كمجرد كيان، إلى التعريف بما يختلج داخل الأبدان.

عصر الجنون يأتي مباشرة بعد العصر الجليدي.

في تقويمي إن كنت لا تعلم.

في يوم عطلة (من العطل) بدأت أنا بالشغل.

شهر جانفي جعلوه بداية السنة الجديدة، و جعلته بداية الحياة الجديدة.

اختليت بنفسي في غرفتي الهادئة، و على المكتب أخذت ورقة وقلما، وقلت للقلم أُكتب، اكتب ما شرّعه القلب، و حكم عليه العقل بأن تنفذه

اليد، جسّد تلك الخطة التي أرقتني ليلة أمس، وعرّقت بدني، وارتجفت لها جوارحي، على أخطر ثورة سأقوم بها في حياتي، فإما النصر، وإما... النصر، فلا خيار أمامي.

دهشت للقلم يرتعد بين أصابعي، اكتشفت بعدها أن يدي هي التي ترتعد، خطوة جريئة لا أعتقد قد سبقني إليها جان قبلي أو إنسان.

مازلت حتى اليوم و بعد مرور ست سنوات مندهشة، لو لم تكن الرسالة بخط يدي لأنكرت.

بدأت الرسالة كما جرت عليه الأعراف، سميته باسمه حتى يتيقن أن الرسالة لم تخطئه، نصحته ألا يتسرع في قراءتها و في الحكم على مرسلها، ولقنته كلمتين يحفظهما أكثر مما يحفظ اسمه - المزيف - «الصراحة والذكاء»، كما لم يخل كلامي من التهديد، أنذرته أني لو ألمس منه ذرة كذب أو وجود طرف ثالث بيننا سأقطع الاتصال مباشرة دون تقبل أعذار.

وفي الأخير دللته على الإنترنت كوسيلة سهلة، مفهمة، اقتصادية، والأهم آمنة للتواصل، مذلّلة له كل الصعوبات، لو اطلعت على الرسالة لظننت أنك تقرأ دليلا لاستعمال الحاسوب و الإنترنت.

وختمت كلامي طالبة منه التحلي بالصبر ثم الصبر، ثم الإطمئنان.

وبعد زيارة ساعي البريد لمنزلهم - رسالتي هذه عرفته بمنزل جديد، ذهبت إلى مقهى الإنترنت لأطلع على إن كان هناك بريد جديد،..

توقعاتي لم تكن في محلها لأني وجدت الرد.

باقتضاب أكد لي في رده أن الرسالة وصلته، و«من الباب للطاق» يريد معرفة مصدرها.

لم يكن غبائي يفوق حماسي، لهذا تواصلت الرسائل و تعددت حتى أمهد الطريق، و أي طريق؟ بل كان جسرا لو لم أحكم وثق حباله، لتكون خاتمتي في قعر الوادي.

أنا أحب الجسور والمشي عليها، وأعشق النظر من فوقها، واستمتع بتأرجحها.

أكره فقط أهل الجسور، و مهبط الجسور، فأنا التي لم تسقط منذ عصور، لهذا لا أريد أن أسقط عند أول خطوة في مسيرة غرامه.

معظم الرسائل كانت حشو و استطراد، و علاقتنا تترنح بين مدٍّ وجزر، بين أخذ و عطاء.

بدأت ألمس فيه شيئا من التعلق، ربما بي أو ربما بالحقيقة عندما قال أنه مستعد أن ينفق ما على الأرض و ما تحتها من كنوز لقاء معرفة من أكون؟

مضت ثلاثة شهور من التهديد و العناد، و بتغيير طفيف و هو تطوير الاتصال إلى الدردشة المباشرة على الانترنت.

رتبنا لبعضنا موعدا لا نخلفه في الساعة الواحدة ظهرا، و بدفتر شروط: على أن يلزم كل منا المكان المتفق عليه لمنع الالتقاء.

قابلت الجهاز،.. وجدته ينتظرني منذ ساعة.

متسرع كعادته.

هم هكذا أهل سطيف (ياكلو العيش سخون)، أبناء سيدهم الخيّر.

هذا الذي كنت أظنه سيرفضني، و أن رسالتي لن تظفر بنظرة منه، أصبح الآن ينتظر لقائي، زاد من غروري (اللي حاب يشوفني لازم ينوض بكري).

فيا سيدي الخيّر، قم و انظر، و ضريحك فاهجر، هؤلاء قومك اتخذوك مفخرة، بنو عليك بناءً فاخرا، و ألبسوا ضريحك قماشا مطرزا أخضرا، و أصبحت مقبرتك لميّت سيدفن أو لحيّ زائر. فإن كنت موجودا حقا، فأكيد أنك لست راض لا عن العمرية و ملايتها، ولا عن عامر و شهامته.

أهل سطيف قديما يعرفون بـ«النيف» (العزة و الكرامة)، أما اليوم: فهم إما تجار يبعث بعضهم يوم القيامة فجارا، لأن مصدر مالهم من القمار، و إما خُمّار.. و شرذمة قليلة للمساجد عمار.

إلا.. من رحم ربك يا.. الخيّر، يا المخيّر..

بدأت بالترحيب و الاعتذار:

- سامحني على طول الانتظار.

- لا مشكلة، أردت تصفح بعض المواقع إلى حين مجيئك.

- كيف حالك؟

- لا تسأليني عن حالي أرجوكِ؟

- لماذا؟

- «كيف أنت»، صيغة كاذبة لسؤال آخر، وعلينا في هذه الحالة ألا نخطئ في إعرابها، فالمبتدأ هنا ليس الذي نتوقعه، إنه الضمير المستتر للتحدي تقديره «كيف أنت من دوني أنا».

- كلام بليغ، من أين لك كل هذا؟ و الخبر؟

- الخبر سؤال آخر أنا الذي أسأله: و هل تركتني أكون على حال؟ فأنا اليوم لا عدت أميز بين فرحي من حزني؟

- أهذه الدرجة؟

- نعم لهذه الدرجة و أكثر، كيف أحادث شخصا منذ ثلاثة أشهر وأنا لا أعلم عنه أهو ذكر أم أنثى؟ أصديق يمازحني؟ أم شريكة تود حقا مشاركتي حياتي كما تقول؟ فإن وجدتك أحدا يعبث معي، فوا لله و مهما كان غلاك على قلبي، فإني لن أسامحكِ طوال حياتي.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- من أنتِ طبعا؟

- أنا فتاة.

- عرفت هذا من خلال الرسالة.

كيف عرف من الرسالة، و قد مسحت كل الآثار؟ (إنه يستعمل الذكاء..).

- و كيف عرفت؟

- من الخط، فالخط المرتب الجميل حكر على الجنس اللطيف.
- تعمل بنصيحتي إذن.
- نعامل بعضنا و كأننا نعمل في مخابرات دولتين عدوتين.
- إنه الحذر، لا زلت أخاف.
- ممن؟
- أخشى أن تعرفني و لا تتقبلني؟
- فلنبق نسبح في حلقة مفرغة حتى ينال منا الجهد و الوقت و المال.
- ماذا أفعل أمام عنادك؟ أنا معجبة، بصرت عن كثب أنك تعيش حياة ملؤها الوحدة، الكآبة و الفراغ، فسوّلتْ لي نفسي الاتصال بك والجهر بهذا الإعجاب.
- أولا تعرفين اسمي؟، و الآن حتى طباعي، فماذا تقصدين بقولك عن كثب..؟
- لأني أحيانا أكون قريبة منك على بعد ذراع.

أدركت أني زججت بنفسي في خيوط ذكائه، و لأقطعها رحت أبعد عنه الشكوك:

- قل لي؟ ما ذاك الحي المخيف الذي أنت تقطنه؟ كدت أموت من الرعب يوم زرته للتأكد من عنوانك.
- لا تغيري الكلام، أنت تعرفين عني كل شيء، كوني منصفة وعرفيني على الأقل بالأحرف الأولى لاسمك، أو مكان إقامتك، أو..
- أو أحمل نفسي و آتي إليك؟.. تحلى بالصبر يا رجل.
- كيف أصبر و قد زاد شوقي إليك.
- شوقك أم فضولك؟

رد علي و كأنه ضاق ذرعا من كلامي:

- هذا هو رقم هاتفي إن أنت اتصلتِ فقد مددتِ جسرا آخر، و إن امتنعتِ فعساك أن تقطعي الاتصال.. سلام.

يصلني تنبيه بأن الطرف الثاني قد قطع الاتصال.
أغضبه كلامي، فأنا حقيقة لم أكن أتصرف بأني معجبة حقا، هذا عمل من يريد قتل الوقت على حساب الآخرين.
تأكدت من هذا عندما بقيت طوال الليل أراجع آخر رسالة له، كان فيها سلميا للغاية، أخبرني فيها أنه تأكد بأنني أعرفه حق المعرفة فالعنوان والاسم والطباع وقربي منه قدر ذراع زاد في جنونه مما جعله يؤول كل ما أقول.. قال لي بالحرف الواحد: حتما قد التقينا قبل اليوم، و تصافحنا ولامست يدكِ يدي.
ويختم كلامه بقول فرنسي لطيف «ربما أنت الملاك المكلف بحمايتي، أو الهبة التي انتظرتها طوال حياتي».

نبيل هو.. لطيف.. لهذا ماتلومنيش لأني أحببته.
قسوتي عليه ثمن أمني.
لا أعوّده على الدلال، ليس أي شيء يطلبه يجده عندي.
لي جدول: كل شيء في أوانه و حسب الطريقة المسطرة سلفا.
لهذا تركت له رسالة طلبت منه فيها أن يقابلني غدا في الدردشة.

وفي الغد استغربت غيابه، أوّلت غياب اليوم و قطع الاتصال بالأمس، إنه يريدني أن أركض وراءه.. إنه يعمل بـ«جوع كلبك يتبعك».

اندهش صاحب المقهى من انصرافي المبكر و أنا أتمتم:
(صحّ يا سيدي إذا كنت أنا..)
فتحت حافظة أوراقي و استخرجت منها رقم الهاتف الذي أعطاني، ترددت بين مكالمته من عدمها، و إن فعلت ماذا عن صوتي، أكيد أنه سيعرفني.

آسفة يا عقلي، تحمل ما يريده قلبي، أحرق كل طاقتي، شغّل كل محركات تفكيري فإن طعامي و أنفاسي و أكسيجيني لك، خرب جميع الخلايا، أخرج جميع أرشيف خططك، لا أريد أخطاء، لا أريد خسارة،.. أريد حبيبا.

تأخر تفكيري حتى منتصف الليل، خلصت بفكرة علها تفي بالغرض.

جعلت مني الليالي مصاصة دماء العشق، أن ألد في الخفاء أفكارا غير شرعية، جعلت مني ميكافيلي النساء اللاتي لا يستطعن أن يصلن إلى غايتهن.

لا نصل إلى الهدف ما دامت الوسائل تملى علينا.

لو أملينا على السباع كيف تصطاد، نكون حينها علمنا السباع كيف تكون غزلانا.

لا خير في حل تصدق به الغير عليك.

غايتي الحبيب، وسيلتي لدى النواري:

- السلام عليكم.

يرد باستغراب:

- من؟.. أنت؟ هاذي غيبة..

- الله لا يغيبك علينا، اشتقنا لصوتك يا النواري..

- كوني صريحة.. بما أنك تذكرتني أكيد أن هناك شيئا ما؟

- لا تتغير، تبقى دائما أنت أنت.

- كلي آذان صاغية، طلباتك؟

- أريد تغيير نبرة صوتي على الهاتف..

- طول عمرك غريبة، صاحبة أفكار غريبة.

- و أنت طول عمرك منقذي و مساندي يا عبقري.

- أود أن أسألك لماذا، لكن أعلم أنك لن تجيبيني.

هناك طريقتان عصرية وتقليدية، العصرية: ما وصلت إليه التكنولوجيا الخاصة بي هو برنامج رائع لكن لن ينفعك في الهاتف.

أما التقليدية: ناجحة مائة بالمائة وخطرة المليون في المائة.

- اللي حاب الشباح ما يقول آح، أزرع ينبت..

- الهليوم..

- آخاه... (أصرخ)

لكن أمّنه لي في أقرب وقت.

- هذه خطة جهنمية، سوف تعرضين نفسك للخطر.

- إذا مت أكون مت في سبيل الـ...

و ينقطع الخط بإرادة مني.

شكرا يا النواري، شكرا يا أثمن كنز لم يكتشف على جزيرة مأهولة باللصوص.

النواري... سميت لأنك هبة من النور، و علّمت من لدن النور الذي لا يهدي نوره لعاصي، يا فخر رحم أمك و يا شموخ أنف أبيك.

لا تجزع يا من لم تلده أمي، عش في هذه الجزيرة إن لم تهبك منصبك، فاعلم أن لك عروش القلوب.

ما أنت إلا كشعرة في جلد ثور، هناك من ينجز و يخترع ما لم يصل إليه الغرب، هناك كتّاب و شعراء تضاهي كتاباتهم ما كتبه موليير وشكسبير.

إنه زمن تفوق الأقدام على الأقلام.

تكريم شادي (قرد) الألحان على حافظ القرآن.

***

وجهتي في هذا الصباح الكسلان إلى هاتف عمومي، حتى هذه الأماكن اكتسبت السمعة السيئة على غرار مقاهي الإنترنت، و أنا بكثرة

ارتيادها خشيت على نفسي من شفرات الألسن الحادة الطويلة، هذه الأكشاك منتشرة في عين ولمان كالفطريات، لما تدخل إليها تجد طوابير من بنات الثانويات و حتى من هن أقل سنا يشغلن مقاعد الانتظار، و لما تبادر بالخروج تسمع صوت صاحب المحل يأذن لك باستعمال الهاتف، تندهش لما ترى خمسة هواتف كلها شاغرة..

ماذا يفعلن هؤلاء إذن؟

رفعت السماعة، أنصت قليلا إلى نوتة «لا – la» التي تنذر بوجود الحرارة إن سمعتها فقد أوتيت حظا عظيما.

أولا سئمت تلك النوتة، و ثانيا لا يزال في عام 2003 هاتف يتعطل باستمرار،... و ثالثا أسمع كلمة «الو»..

أخرجت قارورة الهليوم من حقيبة يدي، نظرت فيها معمقا ثم أعدت إرجاعها، و بالطبع سكوتي يُعلم بأني أنا المتصلة..

– هذه أنتِ أكيد!

طرقة واحدة على السماعة.

– واضح أنك عنيدة، بل اسمك عنيدة.

طرقتان على السماعة.

يجيب بقهقهة صفراء:

– اختراع ظريف، طرقة: نعم، طرقتان: لا لا.

أصبح اسمك: لا لا عنيدة، إذن يا لالة عنيدة لقد بلغ السيل الزبى، أنت من يسنّ القواعد و من يشترط الشروط و في الأخير أنت أول من يخالف، أكدتِ لي في أول رسالة أن الصراحة و الذكاء هما السبيلان الوحيدان اللذان سيوصلانني إليك، و أنا لحدّ الساعة أجدك ملفقة بارعة للأكاذيب، أما عن الذكاء.. سأخبرك عنه في حينه.

آخر وعودك لي أنك ستقلعين عن هذه الطريقة في التواصل، لأنها بدل تقريب المسافة و اختزال الوقت تزيد الأمور تعقيدا.

– خلاص برّدت قلبك..؟

يرد بعد سكوت طويل.

- وأخيرا نطقتِ، نطقتِ حتى جزمت بأن الهاتف أخرس.

- لا، ظننتني أنا الخرساء، المهم لا تفرح كثيرا، لأنه بعد قليل ستتلقى أذنك نغمة «لا».

- لا أرجوكِ.

كم انتظرت هذه اللحظة، لو كنت أعلم أنه سيأتي يوم و تكلميني فيه لأسرعت بتحويل عقارب الساعة.

و لو كنت أعلم كم يكفي من إهدار الوقت و المال لكي أسمعك، لصرفتهما جملة واحدة في لمح البصر.

قولي لي، قولي لي كما يقول نزار قباني: «ما الحل فأشواقي وصلت لحدود الهذيان»؟

كم تطلبين من وقت ومال آخرين حتى أراك؟

كنت فقط أتلقى، لم أقف و لا على كلمة مما قاله، ليس من طبعي ترك كلماته دون تمريرها تحت منظاري، في الماضي أحلل و أفسر كلامه كلمة، كلمة، تقنين نابليون و انتهى، أما وقتها فربما أني مندهشة من عتابه، أو ربما انتبهت إلى أني تحت مجهر مخبره.

الحرص مطلوب، هو الآن يعمل بمبدأ الصراحة و الذكاء و أضاف له «التّثعلب».

- لالة عنيدة أين ذهبتِ؟

- إنني أسمع.

- بل أريد منك التكلم.

- سيأتي يوم و تطلب فيه مني السكوت.

- أحبك أقصد أحب زرع الأمل.

- اطمئن، في حياتي ما وعدت و أخلفت.

- تعجبينني.. صنديدة، هيا الآن اخبريني ما اسمك؟
- و كيف تريد أنت أن تسمعه خضرة؟
- جيد جدا، تعرفين حتى اسم أمي.
لما ترد عليك قولي لها أنكِ رشيد.
- رشيد، من أصدقائك المقربين، يعمل لحام، متزوج من برايجية، و..
- كفى.. كفى، يا جدّك عندك كل ملفات الناس.
- أقولها للمرة الأخيرة، أني إذا أردت شيئا و وضعته نصب عيني، لا أسمع مصطلح الفشل أو الانهزام.. إن أردت إخبارك ماذا أكلت اليوم.. أقول لك.

ألاحظ أنك بدأت تشفى من طرح الأسئلة، لم تقل لي كيف ستكلمين أمي وتستعملي اسم رشيد في آن واحد.

- تيقنت أن هذا الأمر سهل على امرأة في مثل مستواك المخابراتي.

نعم، لقد قالها، سهلة و بسيطة في مجتمع (عندك دورو تسوى دورو، ماعندك والو ما تسوى والو).

حتى الدورو أصبح الآن اورو، عملة مغبون فيها الكثير، لا أكاد أجد في عين ولمان و لا حتى في كل البلاد من لا يقتات من مصل أوربا و لو بالشيء القليل، من ساعات الفجر الأولى أرى تراكم طوابير من الناس عند بنوك لا تفتح إلا عند الضحى، كل شيوخ حارتي هناك، وأبناؤهم يحفظون جيدا اسطوانة «والله ما عندي، الله غالب راني زوالي».

حتى هذه الكلمة أصبحت لقب يوضع كوسام لفنان، كما يوجد سلطان و أمير للطرب، هناك أيضا الفنان الزوالي، ليقرب عطف الآخرين و(يبعّد العين).

يحسد الناس بعضهم بعضا و هم على صعيد واحد.

هناك من يتهم بالاورو و لا يجد كيف يغطي نفقات أهل بيته، و الذي يقول أنا زوالي تجده محققا اكتفاءه الذاتي و الباقي تأخذه الملاهي..

لهذا فمن السهل إن جدت على أحدهم أو إحداهن ببضعة دنانير (أو فرنكات لأننا نعشق العملة الأجنبية منذ الأزل) فلن يبخل أو تبخل عليك بخدمات مميزة و مميزة جدا.

و ما يمكنك فعله بـ 100 دينار و هو مبلغ عشر خبزات:

• أجرة لموظف عمومي لقاء تجنبك للطوابير.

• احتفاظ بالباقي (pour boire) عند المخالصات لدى أمناء الخزانات العمومية لقاء حصولك على أولويات و اكتساب (المعرفة) في الإدارة.

• التحدث في الهاتف لوقت طويل مع من تعرف و من لا تعرف، بالإضافة إلى حصولك على رقم أي شخص تريد..

• شراء قطعة معتبرة من الزّطلة (ندعوها هكذا أفضل من تلك المصطلحات).

• استئجار ممثل ينوب عنك في آداء مكالمة، وهذا ما سيجعلني أتحول إلى رشيد.

وقس على هذا في حالة تضاعف المبلغ، و انظر ماذا يمكنك فعله؟ وعلى ماذا ستحصل؟

ولكي لا يستدرجني أكثر بالكلام قلت له:

– قد استنفدت حصتك اليوم.

– و هل عندك كل شيء بقدر؟

– طبعا.. فلا تظنّ أن عقلي و قلبي قد حجزا لك وحدك، لدي ما ينتظرني من مشاكل في الداخل و مشاغل في الخارج.

يخيم سكوت بيننا لأقطعه بقولي:

– الآن، هل تأكدت بأني لست ألهو معك؟

- حقيقة في البداية ظننت كذلك، ما بيدي حيلة، جبلنا على أنه من يقوم بهذه الأفعال غير..

- عندكم الحب أصبح مجرد أفعال.. ولعبة، ومضيعة للوقت.

أنا نخليّك،.. تبقى على خير.

- و ماذا عن موعدنا القادم؟

- ما به؟

- أقصد لم نحدد لا الزمان و لا المكان؟

- أحيانا تضحكني كي تلعبها بهلول..

المكان: طاولة الهاتف، و الزمان: لا تهتم.

أقطع الاتصال وينقطع نفسي، يتشبث نظري مطولا في المرآة، لا أدري لماذا أحاول تمزيق صورتي في المرآة؟

تكتسب صورتي من المرآة صلابتها.

لماذا لا ألطم وجهي علني استفيق، قبل أن يأتي نبأ فشلي.

الشيء الصلب له أولوية الانكسار، و الأمور المستعجلة لها أولوية الاندثار، و نحفظ من أجدادنا «أن الشيء المليح يطول».

فكثيرا ما أصاب الأجداد.. وكثيرا ما اخطأوا..

***

اليوم، لا يختلف عن الأمس، من حيث مشاويري أو من حيث الطقس.

في الحقيقة كل الأيام متشابهة حتى و لو كان يوم مشمسا و آخر ماطرا، فهي عندي كلها سواء، أتعمد تقسيم شغل واحد على بضعة أيام، و إلا سأدفع الثمن.. بقائي في البيت.

أنا اليوم في زيارة مركز كرهني قبل أن أدخله، حتى أنا مللت ارتياده و سئمت جواب حاجبه المبرمج على الإجابة بالسّلب.

كل يوم يسأل: إلى أين أنت ذاهبة؟
أجيبه بما يعلم: إلى أمانة المدير.
يرد عليّ بتأسف مصطنع: المكتب مغلق، لأنه لم يأت بعد.
أردفه بسؤالي الروتيني: و متى يأتي؟
يخرج من باب النجدة بقوله: الله وحده الذي يعلم.
صممت حينها التسمّر في مكان ظليل، و لم أجد لنفسي شغلا غير إيصال القادم والذاهب بنظراتي، أطرح على نفسي أسئلة لعل بصري كفيل بالإجابة (من تلك صاحبة اللباس غير المنسق، من ذاك الذي يدفع بجسمه الثخين دفعا؟.. و من.. تلك المشية أعرفها وذاك القميص.. يا إلهي إنه هو. ماذا يفعل هنا؟)
تتبعته بنظري حتى دخل عمارة جل شققها مكاتب لمحامين وعيادات لأطباء.
وأخذت الساعة تلتهم أختها حتى خرج و عبارات وجهه لا تفصح عن شيء، تماما كما في الصورة. إما أنه يحسن التنكر وإخفاء الأسرار، وإما الوريد الذي يربط بين فكره و وجهه مقطوع.
انتهت خطواته إلى سيارته المميزة بلونيها الأخضر والأحمر، يدير محركها وينطلق ببطء، ربما لأنه غارق في التفكير أو ربما رفقا بسيارته على تلك الحفر التي تزين الشوارع.
بقيت طول المدة أفك الطلاسم على مهل، حتى شتّت فكري نداء صاحب الإجابات السلبية: يا آنسة لقد جاء أمين المدير.
نهضت متثاقلة من تعب الجلوس، فالراحة المفرطة سبب من أسباب التعب، نظرت إلى ساعة يدي التي كانت تشير إلى العاشرة والنصف صباحا وأنا أتمتم: أمين المدير جاء على العاشرة، والمدير في أي وقت سيشرّفنا بحضوره؟
طرقت مرتين، ولما جئت أمسك بمعروف، ردّ عليّ صوت بإحسان، شققت الباب قليلا و سرّبت من خلاله وجهي إلى داخل المكتب ليقع نظري

على شخص ملق بأحماله على المكتب و نظراته تتوق لمعرفة من المزعج.
انطلقت كلماتي مباشرة دون مقدمات:
- أظنك مازلت متعبا و لم ترتح كما ينبغي.
تظاهر لي أنه كان يعمل منذ بداية الدوام و بصوت يخيم عليه الملل رد علي:
- قليلا لكن لم يتبق عن استراحة منتصف النهار الشيء الكثير.
- روحي يا بلادي بالسلامة... (قلتها في نفسي)، ثم واصلت بابتسامة صفراء: و أكيد أنك ستردني خائبة، و تقول لي ارجعي في المساء.
يصلح من جلسته و كأن الملل قد طار منه ليقول:
- لا، سنخدمكِ و لو على رجلٍ واحدة.

نظراته تلك التي تلتهمني لا تحتاج إلى قارئ نظرات، كلامه لا يحتاج إلى محلل لما بين السطور، و في ظروف كهذه أفتش بسرعة عن كلمات حتى و لو لم تكن تخدم الموقف، على الأقل أتحاشى مجاملته الكاذبة وأصد رغباته الخبيثة.
- الله يعيشك.. جمع أوراق هذا الملف يرشحني لنيل جائزة نوبل لتكوين الملفات، أنت إداري و تعرف.. ملف واحد يتطلب عشرة وثائق كل وثيقة تستخرج هي الأخرى بثلاث، دون أن تنسى ما ستجده من حسن استقبال الموظفين و سيرورة في المعاملات و سيولة في الطوابير..
إذن الملف بين يديك كاملا، و المبلغ قد دفعته على آخر سنتيم و ما علي الآن إلا الذهاب و انتظار ردكم الذي إن شاء الله يكون بالإيجاب.. و إن كان بالسلب فلا بأس لأني تعودت رفض أبواب الحظ لاستقبالي حتى أصبح يُخاف علي من الأخبار السارة هي التي يمكن أن تأزم قلبي، و لن يحزنّي الملف رغم مشقة جمعه، ستبكيني خسارة المبلغ الذي جمعت نصفه من رمضي عن كل ما اشتهته نفسي و النصف الآخر الذي اجتثثته من جيب أبي بقواطع إخوتي ومعول أمي.

جاء كلامي عكس ما اشتهت سفني، ما زدت النار إلا زيتا، دفع بالكرسي إلى الخلف حتى يسمح لبطنه المنتفخة بالخروج من تحت المكتب، ينظر إلي بنظرات لم تقطعها حتى أجفانه، بدأ يتقدم نحوي وهو يوسع في عقدة ربطة عنقه.. وانتهت خطواته عندي.

قلبي من شدة النط كاد يخرج من فمي، لم أجرؤ على الوقوف خشية اصطدام وجهي ببطنه، مد يده نحوي، اندفعت إلى الخلف و قدمت له الملف، ثم استأذنت للرحيل و لم أذكر ماذا قلت بالتفصيل.

خرجت أهرول طول الرواق، أدركت الأمان لحظة وصولي إلى الباب، جسمي يرتعد وفكري يحمل كوكتال أفكار، كوكتال عواطف،.. الدراسة، العمل، هاجس البكالوريا، أبي، أمي، كل العالم أراه يتحداني.

صحيح أني ما عدت أرغب في تكوين جديد، و لم تعد لي رغبة في التعلم من جديد، جدار غرفتي لا يستوعب المزيد، قررت ألا أضيف شهادات أخرى إلى الجدار، و قررت أن أحافظ على قلبي من الانهيار.

ماذا يمكنك أن تفعل بالشهادات غير سجنها داخل إطارات؟ خصوصا بعد كل التخريبات التي يدعونها إصلاحات، لم نعد نطق لا التعلم ولا التعليم في منظومة تربوية جعلها رجل واحد فقط منظومة تغبوية (بالعربية).

يا وطن المعجزات..

كفانا من لعب الدومينو، لعبة ينتظر منها المتفرجون أكل الشهد، لكن تبرهن وبنفس الطريقة على ديمقراطية الدومينو.

لعبة الدومينو -لمن لا يعرف قوانين اللعبة- هي أحجار وزارية، تخلط و تقسم على نفس (لُفَّاقَرْ) الوجوه، يحتفظ القائد -لكل لعبة Chef - بـ«Double Six» والأحجار الأخرى لما تبقى من اللاعبين، أما الدوبل بلا(ش) فهي من نصيب المتفرجين.

و يجب على اللاعبين التمتع بقدرات خارقة، كي يستطيع الذي تحصل على حقيبة النقل في الخلطة الأولى، حمل حقيبة الصحة في الخلطة الثانية.

يعجبني كثيرا قول مفدي زكريا في التغني بالوطن: جزائر يا مطلع المعجزات..

سأجرب اللعب في أو بحياتي لربما سأكسب وظائف شغل متعددة بتعدد شهاداتي، لا لسد رمقي، بل و الله لسد فراغي.

بعد أيام عاودت زيارة ذلك المركز، و لما قرأت القوائم المعلقة عند الباب وجدت أني قد تمكنت من الحصول على مقعد في مدرسة للشبه الطبي، غادرته متسللة خشية الالتقاء بصاحب البطن المنتفخة.

ركبت الحافلة التي ستقلني إلى الحي الذي أسكنه.

عندنا هنا لا تكاد تلمس شيئا حتى يذيقك من عذابه، فهذه الحافلة بكثرة توقفها في مواقف رسمية أو عرفية، أرغمتني على النزول في منتصف الطريق، أولا لتوديعها، و ثانيا أردت خدمة من شخص أعرفه من أيام الطفولة، طلبته من هاتف عمومي، و بـ 200 دينار وصلني جسمه برقا و ثيابه رعدا.

أعطيت السماعة للأجير وأوصيته أن يطلبه على أنه رشيد إن ردت عليه عجوز:

- الو... رشيد؟ (أجاب بحسن نية)
- هذه أنا... مفاجأة، صحيح؟
- لكن أمي قالت لي...
- انتظر دقيقة.

تناولت حقيبة يدي و أخرجت منها أجرة المرتزق وأردفت له بإشارة للانصراف، أغلقت باب الكابينة و التهمت ما فيها من هواء ثم أرجعته

يزفرة طويلة عساها تهيئ الجو المناسب، و المزاج الهادئ، و طبقة الصوت اللازمة للمحادثة، وبسرعة أخذت السماعة و سألته:

- لم تقل لي؟ أعجبتك المفاجأة؟
- جدا.
- أرجو ألا تكون مشغولا.
- لا إطلاقا.
- لم أعد أجد رسائلك، فرأيت أنه من واجبي الاتصال.
- رأيتِ أنه من واجبك الاستسلام.
- هي سياسة التجويع إذن؟... سترى..

و أقطع الخط في.. أذنه.

هكذا كان غضبي يفور.. متسـ.. بل متهورة إن لم أقل حمقاء.

أردت من تصرفي هذا أن أبين له أني لست الكلبة التي تجوع.

لكني ندمت على حرمان أذني من سماع صوته..

أرفـع يدي لإيقاف سيارة أجرة، فالموقف لا يستدعي تكرار غلطة الحافلة العجوز.

•

في البيـت وجدت أمي تنتظرني، لتقايـض معي الأخبار (جيد بجيد، وسيء بسيء).

- يا بنيتي.. سبع أم ضبع؟
- علاش يا آما.. رحت طلبت منهم الفيزا؟
- مبروك عليك، والعقوبة نهار نفرح بيك.

دعاء غبي.

أظـن نفسي تسرعـت في الحكم عليـه بالغباء، حتى أعلـم قصد أمي الحقيقي من الدعاء. فلربما هي لا تقصد بالضرورة ما فهمته!

- و أنت يا أمي.. ماذا تخبئين لي؟
- لك مني خبر جيد و آخر سيء.
- منطقيا الناس تبدأ بالأحسن، لكن معي ابدئي من حيث شئت، فالأمر بالنسبة لي سيان، ما دمت في كلتا الحالتين سأصدم..
متعـــوّدة... دايمـــــاً.
- أنا و أبوك سنذهب في إجازة منتصف الشهر القادم، و متأسفة لأنك ستبقين وحيدة.

أمي لم تسألني عن أخباري السيئة، لكي لا ترغمني أن أقول لها أني أنا و قمري الأسمر متخاصمين.

بضع دقائق كانت كفيلة لتنهي اتصالا أردته لساعات... هكذا أنا و سفني، لا تأتينا الرياح أصلا، و إذا جاءت تقطع كوابل الهاتف والكهرباء، اختزلت في نفسي مدينة. وفي جسدي تمثالا رخاميّا أبيضا.

(جدي من الأول مليح، و زادو الهوا و الريح).

حقيقة يراودني من حين لآخر شعور بأن انسحب من حياته أقصد اتصالاته، لوجود فوارق كثيرة بيننا، أجد نفسي لهوفة، بصلتي محروقة، بينما هو طويل البال «بالو في تونس» كما تقول أمي على أخي.

ولأني ما عدت أطيق استعمال الهاتف، هذه الآلة اللعينة، التي و دون قصد منها جعلت دقات قلوبنا تضبط على رناتها، و اهتزاز وجداننا على هزاتها.

يلعن أبوك يا ماركوني، أين ذهبت بالهاتف العتيق ذاك الذي دمر أصابعنا من كثرة التدوير؟

يلعن أبوك يا غراهام بيل، أين ذهبت بساعي البريد الذي يحمل لنا رسائل الشوق من بعيد؟

أصلا نحن نستعمل كلمة «ينعل» بدل كلمة «يلعن»، لا أدري لماذا بالضبط، لكنها تبدو أقل حدة من الثانية، ربما يقصدون ضرب أبيك بالنعال.

في مطلق الأحوال (يستاهلو) لأن الأول لم يستمتع بإيرادات اختراعه الـذي أحدث قفزة علمية كبيرة، حيث تحول الهاتف من صندوق إلى آلة بحجم علبة كبريت.

أمـا الثـاني فلم يجرب الاتصال كغيره، لا بالحبيبـة و لا بالقريبة، فأمه و زوجتـه كانتـا للأسـف أصمتين، و ليـس إلى هذا الحد فقـط..، يروى أنه مات و بطنه محشـوة بأكياس البلاسـتيك من شـدة الجوع.. هذه هي كوميديا الحياة. (جزار و عشاه لفت).

***

كلما نقص إلهامي أراجع صورته.

نعـم يـا لمجـد، قلت سـابقا أنـه في الصـورة صامـت، بل هـو رجل الصمت.

لكن يكفيني مجرد الحضور.

إن جادت علي الصورة بغير تلك النظرات المشفرة الصعبة التحليل، فـلا تتعدى كلماتهـا ما كان يجود به علي من كلام مقتضب: جدا، إطلاقا، قطعا...

يقـال: أيام التعـارف يتكلم الرجـل و تنصت المـرأة، و أيام الخطوبة تتكلـم المـرأة و ينصـت الرجـل، و أيـام الـزواج يتكلمان معـا و ينصت الجـيران.. و لا داعي لمعرفة من سـيتكلم و من سـينصت أيام الطلاق.. لا أقـول (بعيد الـشر)، فقد يكون خـيرا لكثير من المغبونـات... وحتى المغبونين.

تكلم... تكلم يا صاحب هذه البدلة.

رأيتـك مرتين في حياتي ترتدي البدلة.. مرة في هذه الصورة، و مرة.. عند نهاية هذه الرواية.

تكلم.. أم تحب الصمت؟ أتعبت أمك.

لو علمت أنك ستكون صامتا، لما أجهدت نفسها تعليمك النطق في الصغر، و الكلام في الكبر.

فليس كل من نطق، يكون بالضرورة قد قال كلاما.

إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب. هذا صحيح..

لكنك صامت لدرجة أصبحت فيها سامطا (لما تحمله الكلمة من معنى في العامية، بالرغم من وجودها في اللغة العربية إلا أنها لا تؤدي نفس المعنى الذي هو «سامط يرهج»).

تظن نفسك رجل الأفعال ربما، بل رجل الأفعال المضارعة فحسب، عندك يموت الأمس تلقائيا، كذلك و يفتح لك الغد تلقائيا.

يعيش حدود يومه،.. مع أمه (طابت ولاّ تحرقت).

هكذا كان يقتلني، و مازال يقتلني و أنا أكتب لك هذا (مشروع الاعتراف أو الاعتراف المشروع).

الحب كما الموت.. لا تعلم في أي وقت يداهمك، و لا في أي أرض يتركك.

هب أن أمامك رزنامة السنة..

ستجد بلا شك أرقاما ليست كباقي الأرقام.

هي أرقام لأيام عطل و أعياد دينية و وطنية.

و أرقام أخرى لا دخل للطابعة فيها، هي ذكرى موت، أو عيد وفاة إن تعاقبت عليه أعوام.

لطالما أحببت أن ترتبط الأشياء المهمة في حياتي بتاريخ ما.

إذن سيكون عامي على مدار اثني عشر شهرا حافلا بإصدار كتب، أو تدشين مشاريع، أو بناء حب على أنقاض آخر..

أو أن الحياة ستهديني المزيد من الخيبات، و النكبات..

يصبح الرقم الواحد ذكرى مزدوجة.

الحب كما الموت حتى في النياحة، في العزاء، في مراسيم الدفن، في وجود مذنب و ضحية، حتى و لو لم يكن الميت مقتولا فأكيد هناك سبب للوفاة، أوليست المنية في حد ذاتها داء؟

عندما تسمع القرآن يتلى في العزاء تظن أن كل الآيات أنزلت في شأنك.

أما في الغناء يلقحك الحب بإبرة ضد (الفهامة) و يصبح ما كنت تظنه حقيرا وتلك الأغاني التي تتهمها بالرخيصة و أصحابها بالأحمرة الناهقة، أناشيدك الوطنية، فطورك الصباحي، ومؤنستك عند أرقك الليلي.

ربما أن كاتبها لم يحتج إلى قلم و ورق لكتابة كلماتها، وربما مؤديها لم يحتج إلى صوت رخيم شجي، ومنتجها لم يحتج إلى موهبة أصلا، لكنها تجد طريقها إلى أذنيك بسلاسة، وتجد أنت في النهاية أن أذنيك قد أمستا و أصبحتا مبولة لأحمرة الإنس و شياطين الجن.

***

وصلنا إلى أواخر شهر مارس أو مغرس كما يحلو للأمازيغ تسميته.

مفكرتي لا تحمل في شهر مارس أرقاما مميزة.

رغم أن فصل الربيع أهم حدث في شهر مارس.

ما عساه يفعل لي الربيع حتى أجعل له رقما في مفكرتي.

ربما بإمكانه إذابة الصقيع الذي جمد علاقتنا.

يزعم البعض أن الأفلاك و الكواكب لها تأثير على مزاجنا و حظوظنا، فلربما للفصول نفس التأثير.

ربما ستتفتح أحضاننا، ربما تهب نسائم الإشتهاء بيننا، ربما سيغرد قلبانا..

ربما قد يسقط الثلج في عز الربيع.

لهذا، سلطة الربيع أرغمتني على ترك فرصة لبرعمة تينع، تزهر، و إن شاء يدعها تثمر.

ذهبت في زيارة إلى معبد العشاق، فنحن نظل عاكفين على تلك الأجهزة التي عساها أن تقربنا إلى الأحباء زلفى.

تفقدت بريدي الإلكتروني، أخذت الرسائل تنهمر علي تباعا، لكن برغم كثرتها إلا أنها كانت في مجملها أسئلة قصيرة و كلمات شحيحة وصور مغرية.

تأكدت حينها أنه تعلق بي، و طعمي لم يبتلعه و فقط بل جعل منه طوقا و سوارا و خلخالا..

وكردة فعل على قبولي لهذا الجسر أجريت له اتصالا:

- مرحبا.. من معي؟
- أنا رشيد أو رشيدة، أُدعني كما يحلو لك.
- تريدين إلصاق هذا الاسم بك، و أنا أريد...
- لا، أردت فقط إذابة الجليد الحائل بيننا.

يسأني باستغراب:

- أي جليد؟ لا ألمس شيئا بيننا.
- السياسة التي تنتهجها.
- و أية سياسة؟ لا أفهم ما تقولين؟
- سياسة الهواتف المحروقة.

إن كانت تلك مخططاتك لتوقع بي، فأنت مخطئ.

يصر على عدم فهمه:

- و الله إني عاجز عن فك ألغازك، تحاجي وتفسري وحدك.
- لماذا لا تتصل؟ لماذا كل هذا التجويع؟
- تفقدي علبة رسائلك، وبعدها احكمي.

- لا، أقصد قبل ذلك.
- آه، تذكرت..

وقتها كنت منشغلا بأمي أرافقها إلى العيادة، لقد أجرت عملية على مستوى العين.

لم أجد ما أقوله، فالخجل من نفسي جعل لساني يتلعثم، و الرأس بالجدار يرتطم.. متسرعة كالعادة.

لهذا إذن رأيته يرتاد تلك البناية يوم ذهبت إلى مركز التسجيل في الشبه الطبي، حقا كان فيها طبيب عيون، و الآن فقط عرفت سبب شرود ذهنه كلما خرج منها... يا إلهي..

أسرعت بترقيع ما خربته:

- آسفة لأجلك، و آسفة لأجل أمك.
- لا بأس، و لكي لا تتكرر أزف لك خبرا، أنه أصبح لدي هاتف محمول.
- حقا؟ إذن بإمكاني قتل شخصية رشيد.
- و تقتلين المزيد من الوقت، المزيد من القلوب.
- لماذا؟ كم تملك أنت من قلب؟
- مذ عرفتك أصبح لي واحد.
- و قبل أن تعرفني؟
- زرت يوما طبيبا مختصا في القلب، و بعدما قاس ضغط دمي، وأجلسني على كل الآلات، قال لي إن نبضات قلبك معتدلة، اندهشت لكذبه وهو طبيب القلوب، فالذي قاس نبضه مجرد مضخة، لأني وببساطة لم أكن أملك قلبا..

أما اليوم فهذه المضخة لم تعد تضخ دما...

خيم سكون جنائزي بيننا، قطعته بصوت مبحوح:

- واصل..
- أحبك.

اللعنة..
اللعنة على كل الرجال..
اللعنة على كل النساء..
اللعنة على الذين طالما تمنوا أن يكونوا نساء..
اللعنة على اللائي طالما تمنين أن يكن رجالا..
و اللعنة على المطالبات بالمساواة بين الرجال و النساء.
عندما عرف الحب، دبت الحياة في القلب.
من أي طينة صُنع الرجال؟
المرأة عندما تحب تموت، والرجل لما يحب يحيى، على أي أساس نطلب المساواة؟
لما أراه في الشارع من بعيد يغمى علي، و لحظة قال لي أحبك سقطت السماعة من يدي، و احتجت أن أنقل على وجه السرعة إلى الاستعجالات ليصعق قلبي بتردد عالٍ، بجهاز الإنعاش الكهربائي.
من تلك اللحظة ارتددت عن حزب الغبيات، تبّا لهن، يطلبن المساواة بكائن يحيى لحظة موتنا.
تشوّشت بوصلتي، فأية بوصلة أو نجم أستدل به إلى المنزل؟
الحب مسكر، و (كل سكران يعرف باب دارو). لكن ما أنا سكرانة من هذا النوع!
قطعت الاتصال و أنا لا أعرف للطريق طريقا.
كلمة لما دخلت إلى مجالي المغناطيسي، شوشت جميع راداراتي.
اهتديت إلى مقعد في حديقة عمومية إلى أن يذهب سكري.
بدأت أقضم الفرحة على مهل، وأستوعب ما حدث على مهل.
خلصت إلى نتيجة أني عند نقطة اللارجوع، إلى حيث لا يمكن نقض المعاهدة.
ما أنا من النوع الذي يصطاد، و في كل مرة يحصل فيها على سمكة يرمي بها مجددا إلى البحر، غير آبه بعمق جرحها و إن كانت ستعيش من

بعد تركه لها أم لا؟.. أو يرمي بها إلى القطط.

أنا امرأة تلبس البنطال.. و ليس كل من لبس البنطال رجلا.

أنا امرأة تملك رأسمال الرجال.. و ليس لكل الرجال رأسمال.

لماذا لا نعير للرجال تنانيرنا، ما دامو قد أعارونا البنطال؟

نريد الاقتراض من رصيد نسيانهم، خيانتهم، شهوانيتهم.. فهنا لديهم الفائض.

صاحب الاسم المستعار مطمئن لأني علمته الشعار:

«أمشي معايا بالنية، و ارقد مع الحية».

***

إلى الهاتف مجددا.

تسعة أرقام صحيحة كفيلة بأن تربحك جلسة لشخص واحد مع القمر.

أظن أن حظي يتعثر كعادته عند أول خطوة.. (إن رقم مراسلكم مغلق أو خارج مجال التغطية).

ربما هو في قيلولة، لكني واصلت الكرة.. النتيجة نفسها.

باعدت بين المحاولات لكن لا حياة، تفقدت سيارته من النافذة وجدتها مركونة أمام المنزل، فزادت شدة توتري..

لما لاحظت نفسي كل هذا الغليان، أجابها قلبي أنها أعراض الحمل العشقي.

إذا كنت قد حبلت من كلامه، فماذا يحدث إن التقى الطرفان.. والجسدان.

تفقدت قلبي وجدت رصيد نبضاته يكفيني لتجربة الرهان مرة أخرى، شكلت الأرقام التي أعطاني إياها والشك يغمرني بأنها خاطئة..

إنه يرن..(حتى المحمول به نغمة «لا»).

ربحت الرهان المكلف، ألف نبضة برنة..

- ألو.. صحّ النوم..
- الصوت لا يزال خافتا..
- لدواعي أمنية..ثم أردفت مباشرة حتى لا يأخذ مني الكلمة:
تصدق؟ من كثرة تكرار المحاولات لم أعد أحفظ رقمك كأرقام، يمكنني تشكيلها من خلال رنات الأزرار.
- لم أكن نائما، شبكة المحمول حديثة و هي رديئة بعض الشيء، زيادة على هذا فإنك اكتسبت خبرة في رنات الأزرار تنفعك عند مصادفتك لهاتف تكون كل أزراره تحمل نفس البياض.
أجيبه بثقة:
- ربما لن أحتاج إلى هاتف مرة أخرى، و ما أدراك؟
- «قالوا للأعمى عن ماذا تبحث؟ قال أبحث عن الضوء».
- لهذه الدرجة؟
- وأكثر، لا تفارقينني، لا في يقظتي و لا في منامي، تكونت لدي فوبيا الأنوثة، كل فتاة أصادفها في الشارع أقول لعلها أنت، أصبحت مدمنا على الأغاني العاطفية، على القصص الرومانسية، أغار من صور البطاقات البريدية الشهية، من..
- هل خنت أم كلثوم؟ (مقاطعة)
- يا جدّك..، ما أنت بإنسية، لا أحد يعرف أني أستمع لأم كلثوم، وضعت إصبعك على الجرح، فأم كلثوم نشأت مع مواويلها و ترعرعت بين آهاتها، و يا ما بللت دموعي منديلها..
- صعب أن تتعلق بفنان، خصوصا عندما يكون ليس مجرد فنان.
- وأنتِ، ما نوع الموسيقى التي تهوينها؟
- الـPop خصوصا، ومايكل جاكسون عموما وخصوصا، كليا وجزئيا، شكلا ومضمونا، صوتا وصورة.
- تعملين إذن في مجال الموسيقى؟
- لا.

- طالبة في الموسيقى؟
- لا.
- مغنية؟
أجبته بضحكة ساخرة:
- يا ريت، وإن لم أكن مغنية فلاعبة كرة القدم.
- لماذا؟
أجيبه بحسرة تليها زفرة:
- نحن في وقت تتفوق فيه الأقدام على الأقلام، المجون على الفنون، لما تتصفح جريدة، تجد فيها:

الصفحة الأولى بعنوان ضخم غالبا ما يكون ركيكا أو بأخطاء إملائية وذا مقال مجهري.

وبعد صفحات الاختلاسات و الدم و تتبع عورات الناس، تأتي صفحة للثقافة، تليها مباشرة خمس صفحات كاملة ليست للرياضة وإنما سوق للنخاسين، صفقات كبار بارونات الرق الحديث يبرمونها مع اللاعبين، و بعدها يمكنك رمي الجريدة فلم يبق فيها إلا صفحة العفن التي ستجد فيها: توتو، ميمي، فيفي، هاها، جوجو، و غيرهم من يدّعون الفن.

والخمس عشرة صفحة الباقية إشهارات.

هذه مهن من لا مهنة له، هذا زمن الفتن، زمن الأيدي التي تنهب ليست التي تهب، أنا منذ نصحتني زميلتي الجميلة أحلام مستغانمي لم اشتر جريدة (هناك جرائد يجب أن تغسل يديك إن تصفحتها، وإن كان ليس للسبب نفسه كل مرة، فهناك واحدة تترك حبرها عليك، وأخرى أكثر تألقا تنقل عفونتها إليك).

لو كان الأمر بيدي لأغلقت ثلاثة أبواب: باب الإفتاء، باب الإعلام خصوصا المكتوب، باب الفن (العفن) المنفوش.

- أدهشتني، مرة أقول أنك تميلين إلى المجتمع الذكوري بسبب

مايكل جاكسون، و مرة إلى المجتمع الأنثوي بسبب أحلام مستغانمي.

- مايكل هو الرجل الوحيد الذي يملكني، أما أحلام فهي تتقاسم مع مايكل سبب إلهامي، وهي واحدة من بين قلة من النساء اللواتي أنحني أمام عظمتهن.

- مرة تظهرين لي متحررة في جهاز مخابرات، و مرة موسيقية، و مرة كاتبة و ناقدة و محللة، و غدا الله أعلم لربما إرهابية أو مؤسسة لمنظمة.

أسأله:

- تحوّس على الصّح ولاّ ولد عمّو؟

- ابدئي لي بالصّح.

- أنا طالبة، أحضر للبكالوريا هذه السنة، و بعد أيام قليلة سأدخل إلى مدرسة للشبه الطبي.

يقاطعني:

- و ولد عمّو؟

- أنا كاتبة، آخر درجة تقدير نلتها أني فاشلة.

- من كان في لجنة التحكيم؟

- إخوتي.

- مخطئون طبعا.. سأقرأ محاولاتك و كلمة الفصل خذيها مني، ومن يدري لعلي سأحذو حذوك و نشكل ثنائيا في الكتابة..

يضيف وهو يقهقه:

- سابقة لم يسبق للتاريخ أن عرف مثلها من قبل.

أجبته برزانة:

- إذا فكرت في الكتابة فاعلم أنك ستورط نفسك، فمرادف الكتابة هو التورط، وإن كتبت أُكتب حتى لا يقال عنك كاتب، أُكتب.. ولا تكتب هذا الكتاب الذي بيعت منه مليوني نسخة، بل أُكتب هذا الكتاب الذي لن ينسخ و لن تباع منه ولا نسخة.

وخـذ لك مثلا واحدا يكفيك، حين جاء جبريل إلى محمد - صلى الله عليه وسـلم - لم يوصه بنسـخ الكتـاب، ولم يوصه بدار نـشر معينة، ولم يكلفه بالبحث عن مدير تسـويق شاطر، الآن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيـد والأوحـد الـذي كان و مـازال و سـيبقى محطـما لـكل الأرقـام القياسية - الكتاب الأكثر مبيعا في العالم بأسره لكل الأزمنة..

هـذه مجمل نصائحـي إن نويت فعلا أن تطرش مـن صرير الأقلام.. هكذا لكي لا تحزن..

أمـا قولـك عني أني لربـما أنتمـي لمنظمة إرهابيـة فأنا أقـول لك: بل أميرتها.

مصطلـح الإرهاب طالمـا ارتبط بالتطرف، فإن أخذنـا بهذا المنطق - الخاطئ -، يصبح كلامك صحيحا.

أبسّـطها لك: القارئ لرواياتي يلاحظ أني لست كباقي الروائيين على اختلاف جنسهم، أقلامهم وألسنتهم. أهوائهم الهوائية وأفئدتهم المقعرة متجهة لقمر -مصطنع- واحد.

بما أصبح يتغزل الشعراء؟

بعيون مقتناة من صيدلية؟ أو بأهداب وجمال مقتنى من محل للعقاقير ودهن وآلات بشرية.

ولأني أحـب الطبيعة انتقدت بالتطرف، فلقبت نفسي بإرهابية المرأة، خصوصا الغبية.

هـذه الطبيعة المفقودة وجدتهـا في الرجال (الرجال) وليس أصحاب البنطال الممزق و«Gel»..

ونفـس الفكرة سـلطها على الفلسـطينيين (الفلسـطينيين)، فالأعزل شيء طبيعـي يدافع عن عرضه ولو بالحجر، لهذا فهو إرهابي بمنظور كل العالم حتى العربي.

أمـا الذيـن أطلقوا على أنفسـهم هذا اللقـب -الذي لا يسـتحقونه، بـل اشـتروه بقناطير مـن اللحم، وآلاف اللـترات من الدماء، وأسسـوا

لأنفسهم قاعدة باسم الإسلام، فكيف من يدعي أنه طبيعي من يستبيح أرواح أمة الإسلام تحت اسم الجهاد، فبكل بساطة أنت لست إرهابيّا إلا إذا كنت طبيعيّا، ولا تكون طبيعيّا إلا إذا أريتني نفسك مجاهدا في آل صهيون أو شهيدا ملفوفا في الأكفان.

ليس ممثلا في شرائط فيديو، لا ندري إن كنت حقا في كهف أو في أفخم استديو.

و إن أردت المنطق الصحيح -الذي هو كلامك الخاطئ- فأمامك خياران:

إما في إحدى قنوات التلفزيون.

وإما في إحدى زنزانات السجون.

نصيحة أخرى لك: لا تكن طبيعيّا و إلا أصبحت إرهابيّا.

- تعلمين؟.. زاد شوقي للقياك، و زاد طلب قلبي لهواك.

- غريب أمرك. أتقع في حب من قد تكون حولاء، أو خنساء؟ وأنتم معشر الرجال تلهثون وراء الحوراء، الشقراء؟

- أحببت فيك الروح، و أبصم لك بالعشرة أني وراءك ومعك.

- تشتري الحوت في البحر؟

- مهما اشتد عمق البحر، و مهما اتسعت شواطئه... يبقى فيه سمك.

- وماذا لو رمى بك القدر إلى بحر ميت؟

- مستحيل أن تكون صاحبة هذه الجرأة، و الأفكار المثيرة للجدل ميتة، اليوم تأكدت أنك لن تخذليني ويا ليتك فقط قطعت هذا الانتظار وخرجتي من وراء الستار.

- أوّلتها: لا أحب المجاملة، وإن كانت ولابد فأكتفي بكرم الإصغاء حتى ولو لم يتبع الناس أفكاري.

- وثانيتها يا (مادام دليلة) على طريقة عثمان عريوات..

ثانيتها: الجرأة التي أتقنها غير تلك التي يمتهنها البعض (خصوصا من هم على وزن فعلاوي) وهم كثر من يدلي بدلوه في المياه العكرة، أن

تكـون جريئـا لا تقحم رأيك في الديـن كما فعل الذي جـاء من طنطا أو تفتي بغير علم كالتي جاءت من السعد (اوي، أوي).

تكلم بضميرك الخاص، وأن تصيح بملء فيك ما يطرحه عقلك من أفـكار خـام، لا تنضوي تحـت أي مذهب و لا تنتمـي لأي حزب، وألا تقبل رشـوة تغير مجرى حبر قلمك، و ألا تخجل إن كنت سـجين الكلمة و الرأي خصوصا إن صدقك ضميرك و لا تهتم إن كذبك الناس.

مـن يقول الحجاب غير مذكور في القـرآن، و المرأة مهضومة الحقوق في الإسلام، ما هو بجريء و لا هو مثير للجدل.

و لا يمكننا اتهام كاتبٍ أو أديبٍ أو مفكرٍ بإثارة الجدل.

فالكاتب أصلا يكتب ليثير الجدل.

أولم نصـب بتخمـة «كان يـا مكان في قديـم الزمان أمـير أحب أميرة فتزوجا وعاشا في سعادة و هناء»؟

أولم نشـبع من أعمدة الصحف، حبر على ورق. (قرأت يوما: شـيخ ينتحر في تايلاند)...

والفضائيات.. المصيبة المطورة (سـمعت يوما: يا سـيدي الشيخ لقد أفطرت في رمضان، حلال أم حرام؟).

لمجرد أن تتقي السذاجة، لابد لك من إثارة الجدل.

اتق كل من اسمه على وزن فعلاوي، هذه ليست نصيحة، و إنما هي أمر.

يقاطعني بسؤال هادئ:

- أتتعاملين بالمقايضة؟

أجيبه بحذر:

- أحيانا، على حسب نوع السلعة و كيلها.

- أربعة بواحد من النوع نفسه.

- ممكن.

- لسـت شجاعة، أعلم أن المقدار أوجس في نفسك خيفة، على كل: نصحتني أربعاً وأنا أنصحك مرة واحدة..

الله يهديك، اختزلي المسافة و انزعي هذا الصندوق الذي يعزل بيننا.

- نصيحة أو أمر؟ فإن كانت نصيحة فتدرس، و إن كان أمرا فالأمر لا يحتمل إلا أن يكون تنفيذا أو عصيانا (يا أبيض يا أسود) و أنا أقول لك اتركه رماديّا.

- لكن الطريق المستقيم هو أقرب الطرق.

- لاااااالا (على طريقة المرحومة وردية عندما أصرت على أن سبب مرض ابنها هو السحر، و ليس فطري منذ ولادته قائلة: لاااااااالا، أنا وليدي نهار زاد، زاد كي البوبون)..

أمي دائما توصي أخي عندما يوصلنا إلى أخوالي لكي لا يرعبنا بتلك الطرق المختصرة المتخللة وسط الجبال: يا بني خذ الطريق المليحة ولوكان دايرة، وخوض بنت خالك ولوكان بايرة.

- لعل أمك كانت مركزة على الشطر الثاني.

- بالاك.. و الله غير عندك الحق.

يقاطعني حتى لا أغير الموضوع:

- و الآن... ماذا قلت؟

لم أجد من مخرج لأتهرب من عناده، لجوج بطبعه، «يتمسمر» حتى يقضي مآربه.

- لا أستطيع أن أعدك بشيء حتى أطّلع على مفكرتي.

يجيبني ساخرا:

- Femme d'affaires ou Femme de fer!

- سمني كما شئت، كل شيء عندي بمقدار، في الغد هناك روبورتاج على مايكل جاكسون في إحدى القنوات، وبعدها بيومين أي في 28 مارس يوم الجمعة (عطلة)، ويوم الثلاثاء يصادف الفاتح من شهر أفريل، في هذا الشهر ليس لدي رقم مميز غير يوم الثلاثاء المصادف لـ15 أفريل وهو يوم سفر أمي وأبي.

- إذن فليكن شهر أفريل شاهدا على لقائنا، و لن تعود هناك أيام فقط مميزة في مفكرتك بل ستكون شهور على مر الدهور.
- حنّوني.. الآن أنا مضطرة لقطع الخط، لقد استهلكت الكثير، و إن صادفت الفاتورة أبي فسيكون ذلك اليوم هو آخر أيام حياتي.
- مجرد تذكير: إن كنت ستقطعين الاتصال فلا تقطعي التواصل.. تصبحين على خير.

و أنا أضع السماعة، راجعت ساعة الحائط المعلقة خلفي، ساورني شك بأن انتقال عقاربها من الرقم 4 إلى الرقم 6 بفعل فاعل.
و لما هممت بالنهوض فاجأني رنين الهاتف مجبرا إياي على ملازمة السرير، لم أجرؤ على الرد حتى أبحث عن حجة سديدة أبرر بها انشغال الخط، خصوصا إذا كان المتصل أبي.. مصيبة الهواتف تحل بي هذه الأيام.

استجمعت أنفاسي و قواي.. و بقية نبضاتي.
- الو... من معي؟
- قبل قليل قلتِ لي كلمة أريد سماعها مجددا.
أجبته كمن اطّلع على سره المخفي منذ أربعين سنة:
- الله يعطيك غمّة، ظننتك أبي،.. من أين لك بالرقم؟
يجيب ساخرا:
- لو أن غيرك طرح السؤال؟ عميلة ذكية في المخابرات لا تعلم أن للمحمول كاشف..

يا يوم المصائب، بل عيد وطني للمصائب، الله يعطيني موت، كيف نسيت هذا؟.. ندمت على يوم نصحته فيه باستعمال الذكاء..
هآآاه نندب حناكي، سيطلب من أعوان الاتصالات (أعوان الـ100 دينار) صاحب هذا الرقم.

- الو.. أين ذهبتِ؟
أجبته دون وعي:
- إلى البحر نتلاح فيه.
يواسيني كمن يتغابى:
- لهذه الدرجة تخافين من أبيك؟ و يا ستّي من الآن فصاعدا أنا الذي سأتصل بك لأنقص عنك التكاليف.

أتراه حقا لم يتنبه؟ أم أنه يتغابى؟
ثم أضاف:
- إن أردت مكالمتي، برنة واحدة منك أعاود الاتصال بك؟
- شكرا، و إنما ما أخشاه أن يتصل أبي و يجد الخط مشغولا خصوصا ونحن نتحدث لساعات.
و لأنك أرعبتني لم أعد مهيأة نفسيا لأعيد لك ما تود سماعه.
- أهذه عقوبة؟
- ممكن؟ ناس زمان يقولو: كل شيء في وقتو مليح، فالزمان المناسب ظرف ضروري لهكذا حالات، تماما كالأزهار لا تتفتح إلا في الربيع.
نصيحة رقم خمسة: يختلف وقع الكلمة إن تقدمت بعشر دقائق أو تأخرت بعشر أخرى، فلا أنسب لها من وقتها الحقيقي.. و الشيء نفسه بالنسبة للمكان الذي طبعا لن تناقشه معي الآن.
- وأكيد ستكون نصيحتك رقم ستة أن أقطع المكالمة؟
- تعجبني.. فاهم بسلامتك.. و ليلة سعيدة.
فتحت لنفسي جبهة كنت في غنى عنها لو استعملت هاتفا عموميّا، تكونت لدي فوبيا الهواتف، و أصبح لقلبي وقت مستقطع عند كل رنة.
أما هاجس اللقاء، أترقب كلما خرجت من المنزل أن يدق ظهري شخص و يقول لي: الآن اكتشفتك يا بطلة اللعبة السخيفة التي ليس لها طعم.

أو ربما يكون أكثر تهذيبا: هذا الشيء كله من أجلك أنت فقط؟
الموت حينها يكون أهون عليّ أمام موقف كهذا.

***

الشهر الثالث هو الشهر المثالي لثبوت الحمل.
بعد بضعة أيام سأدخل الشهر الرابع، و حنيني لم تعد تسعه رحابة أحشائي.
ربما سأضع مبكرا، - تطرف رائع..
ربما قد أجهض، - موقف بشع، أكره الانهزام، بل لا أقبله.
ماذا لو تمرد الربيع وترك الخريف ينهش أوراقي أمام ناظريه، وعلى بلاطه.
زهرة اللوز تزهر في أفريل.
أحب اللوز.
لكن قد يكرهني شهر أفريل.
إن كرهني سأنتقم.
أنتقم منه بكرهي للوز.
وسأكره اللوز بأكل الكثير منه، عند الصباح، ومنتصف النهار، وفي الليل.
سآكل أكثر مما أطيق، حتى التقيؤ، مقبلات، طبق رئيسي، تحلية، ومشروب إن أمكن.
يا من حبه ينخر أغصاني، لا تجبرني على أكلك باشتهاء أو من غير اشتهاء.
لا تجبر نفسك على أن تكون لوزا.
أنت هكذا ملكت قلبي وعقلي، بل أكثر من هذا ملكتني.
إن كان الكلام معك مكسبا كبيرا، فلقياك انتصار عظيم.
أحبك يا من وجهت له كل المستقبلات.

عيني تراك في الشجر، في حبة الخوخ، عند نهدي، في ثيابك تلك المعلقة لتجف بحر لهيبي.

أذناي تسمعك وقت السَّحر، في هاتف معطوب، في أغنية يؤديها كاذب على لسان صادق.

أحببت من كان يشبهه وكل شيء لدى المعشوق معشوق

تبا لك يا شفتيّ، أتلفت الصورة.

أما يداي لا تريدان اللمس و لا الجس.

لكن حين ألقاك تتواطأ معهما الذراعان، و لولا رحمة من الله و وفاء من الرجلين، لتعلقتا بعنقك، و مزقت أسناني شفتيك.

آه يا قمري الأسمر كم أحبك؟

لو تعرف قداش نشتيك؟ قداش نبغيك؟

لا أعرف أي المصطلحين أنسب؟

فنشتيك يعني أشتهيك، ونبغيك يعني أريدك.

و أنا أريدك و أشتهيك.

لا أدري إن كان بالإمكان أن تريد شخصا دون اشتهاء، أو تشتهي آخر دون أن تريده.

عندك تتكسر كل القواعد، و تعدّل كل المواصفات.

لم أدرس قامتك و حجمك، لم أنتبه لحلق ذقنك من عدمه.

لم أقيّم هندامك و طريقة لبسك، لم ألحظ طول شعرك من قصره.

رمتني الريح عند قدميك كورقة جريدة مهملة.

تمنيت لو تقرأ الجريدة.

أو ترفعني الريح قليلا إلى أعلى.

إن استعملتني لمسح زجاج ذاكرتك،.. فلا آبه.

فقط، لا ترم علي بعود ثقاب.

حتى سريري تعاطف معك، لم أستطع النوم، رفضني بحجة أنه سرير لشخصين.

ولأجل النوم فقط تناولت سماعة الهاتف لتُناول بدورها أذني أقراص الهيبتادين، ما دام الكل متضامنا معك.

- مساء الخير.

- مساء الصبر القاتل، مساء الانتظار المر، بالله عليك أين كنتِ طوال أسبوع؟

- لا تبدأ باللوم، لي دراسة و بكالوريا و تعلم كثافة الدروس.

- إذن لم يبق لنا شيء؟

- لا تخف، قلبي كالقرص الصلب، كل واحد عندو حقو.

- أنا أريده كله.

- لا تكن جشعا، يكفي تعاطف الكل معك، فلولا تمرد سريري لما اتصلت بك.

- عندو الحق، كيف يرضى أن تنامي عليه وحيدة، وأنام أنا على الأرض.

غريب... عاطل عن العمل و فهمناها.. لكن له سيارة وهاتف محمول وينام على الأرض... ما هذا التناقض؟

اقترحت حلا عطفا مني عليه:

- تخيّل أنك بجواري مادمنا نتحدث و نسمع بعضا.

- الليلة لا رغبة لي في النوم، اشتهيت الطيران.

- نطير بلا جناحين؟

- تخيلي فقط، في الحلم كل الفرص متاحة، كل شيء ممكن ومباح ومجاني وغير محدود. واضح أنك لا تعرفين الطيران.

- لم أجربه من قبل، علمني..
- استلقي على بطنك فوق السرير، و أنا استلقي على ظهري، اجعلي أصابعك تتشابك مع أصابعي، 3. 2. 1.. لننطلق.

أغمضي عينك وتخيلي أننا نشق الفضاء و النجوم محيطة بنا كحبات اللؤلؤ المتناثرة، لا تطلبي الهبوط لأننا نبعد مئات السنوات الضوئية عن بقية البشر، وما من مدرج يستقبلنا، لهذا واصلي حتى ينفد الوقود.

أقاطعه:

- ألم تحلق ذقنك اليوم؟
- لماذا؟
- أحس بخشونة خدك.
- غيري الوجهة إلى 90 درجة، ثم ضعي شفتيك على السماعة وانتظري أوامر القبطان.
- فعلت، وتصلني موجات عالية ذبذبت مجالي المغناطيسي.

أجابني بتنهيدة عصفت بمشاعري:

- تلك هي قبلاتي يا حبيبتي.

لأرد عليه باعتراف من العيار الثقيل:

- أحبك يا أعظم مصيبة ورطت بها نفسي.
- و أنا أحبك أكثر يا «س، ن».

بمجرد ذكره للحرفين، انتفضت من على السرير.

يلحظ صمتي ويسأل:

- لماذا توقفت عن الطيران.
- ماذا تقصد بـ «س، ن»؟
- ما لدي الكثير لأناديك به غير لالة عنيدة في الأول ثم أصبحت «س، ن»، و آمل الحصول على الاسم الحقيقي لم أقطعه، على الأقل

تتكون في ذهني شخصية آدمية غير الورقية التي أعيش عليها الآن.
يضيف:
- واضح أنكِ كثيرة النسيان في كثير من الحالات، ألم تنبئيني أن أول اسمك هو أول حرف من فلك يسبح على البحر، و آخره هو أول حرف من فلك يسبح في الفضاء..
وكعادتي أبحث عن ممر للنجدة:
- بلى، بلى.. نسيت فقط، أنا الآن مضطرة لقطع الاتصال لأني أشك في وجود طرف ثالث على الخط، قد يكون أحدهم يستمع لحديثنا من هاتف آخر، لهذا تصبح على خير.
- لا تنسي مهما كان الزمان، و في أي مكان، رنة واحدة تكفي.

«جات تكحل عينيها، عمات»
طلبت أقراص منومة، أهداني مفاجأة منشطة.
(من الخلعة عييت، و النوم راح في كيل الزيت).

***

في صباح الغد نهضت متثاقلة أخلع ظهري عن السرير خلعا، سرير لم يهبني النوم حتى ساعات الفجر، و لكن أمي جاءت لتهبني الموت كما تعودت كل صباح.
لا تحتاج أمي لقتلك إلى خبر سار أو سيء فقط، فاندفاعها على باب الحجرة و كأنها تدحرجت من أعلى الجبل إلى سفحه كفيل أن يقتلك بسكتة قلبية أو دماغية، لا يهم مادامت في الأخير النتيجة نفسها.

- يا آما الله يعيشك، افتحي الباب برفق، راكي نشفتيني من الدم.
- انهضي، انهضي لقد وصلتك رسالة.

مـوت آخـر تأتي به أمـي في ظرف. هذه المرة ليسـت هـي الفاعل بل الناقل.

فتحت الرسالة على عجل و وجدت مرسلها صاحب محل للنظارات الطبيـة و الشمسـية، يـرد عـلي فيها بقبول طلـب كنت قـد قدمته لطلب شغل.

و اسـتوقف فرحتـي تاريـخ كتابـة الرسـالة 29/ 03، و تاريخ ختم مركـز البريد 03/ 04، و وصلت يوم 05/ 04 التاريخ الذي طلب مني صاحب المحل الحضور فيه، يا و يلي على بياض ليلي.

السـاعة تشـير إلى التاسـعة و النصـف صباحا، أصبحـت جاهزة في تمام العاشرة، التهمت الطريق من وقتي قرابة سـاعة أخرى، وقفت عند الباب، و بعد تمارين التنفس و ترويض الأحبال الصوتية، دخلت:

- السلام عليكم.

مـا من إجابة، لا أحد في هذا المحل الفسـيح، بدأت أتقدم بخطوات قصـيرة و أنـا أضرب بنعلي للفـت انتباه مـن قد يكـون في الداخل، على يميني و شمالي رفوف زجاجية عليها المئات من النظارات مختلفة الألوان و الأشـكال، و حيثـما قلبـتَ نظـري أجـد وجهـي في المرايا التـي تغطي السـقف و مـا تبقى من الجـدران، تفقدت حتى الأرضيـة لعلني أدوس على زجاج أو مرايا،.. و من يدري؟

وصلت إلى مكتب طويل عليه مجلات و صور، القاسم المشترك بينها الأعين و النظارات.

و أخـيرا خـرج من مقصـورة المحل رجل طويل يميـل إلى الضخامة نوعا ما، يرتدي نظارات تعكس وجهي هي الأخرى.

أعـين، نظـارات، مرايا، زجـاج.. كل شيء هنـا قابـل للانعكاس.. وللانكسار.

يجب أن تكون كل حركة أفعلها، و كل كلمة أقولها مدروسة و بحذر حتى لا يكون دخولي كدخول الفيل لمحل الخزف و أكسر فرصة العمل (البلورية) هذه.

يبادر الكلام بصوت لا (يعكس) جسمه:

- هل من خدمة؟

- تلقيت ردكم بقبولي في العمل كمساعدة في هذا المحل، وطلبتم مني الحضور اليوم، صحيح كان علي القدوم مبكرا لكن ما ردك لو قلت لك أن الرسالة وصلتني هذا الصباح؟

- في الحقيقة رب العمل خرج آنفا، لكنه سيرجع بعد قليل فهو لم يبتعد.

- الله يعطيك غمة (قلتها في نفسي).

لأني لو علمت أنه ليس صاحب المحل لما أسهبت في الشرح والتعليل، «الشه فيا» أرباب العمل لا يلبسون مآزر.

كان يجب عليّ الانتظار و إلا ستطير الفرصة من يدي، أردت كسر انتظاري بمشاهدة النظارات المرصوفة على الرفوف، و بينما أنا كذلك دخل شخص يرتدي طقما كلاسيكيا أسودا و سترة جلدية.. و نظارة، لربما هو اليوم الوطني للنظارات، لم أجزم بأنه مجرد زبون لأنه تعدى المسافة القانونية للزبائن و هي ذلك المكتب الطويل، لم يلبث طويلا حتى خرج قائلا:

- يا آنسة، أنت إذن المساعدة الجديدة؟

رددت عليه بخجل (مصطنع) و هو أداة الظفر بوظيفة:

- أجل.. إن شاء الله..

- دون إطالة، أشرح لك الحقوق و الواجبات.

- فلنبدأ بالواجبات.

استمعت باهتمام بالغ إلى توصياته التي كانت معظمها تصب في قالب واحد و هو الاهتمام بالزبائن و محتويات المحل، أما فيما يخص الحقوق فأكد لي أن لي ما لنجيم و علي ما عليه، تاركا لنا حرية اختيار فترات العمل.

و في اليوم الموالي عاودت زيارة المحل بنية البقاء ليوم كامل لأعتاد على الوضع، و ما هي إلا ساعات حتى ألفت نجيم، و نزعنا الحواجز التي كانت بيننا و أصبحنا و كأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل.

أعجبتني طيبته لحد الشفقة، لا يمكن لأي شخص العيش بهذه الطيبة اليوم، بالإضافة إلى أنه يتيم الأبوين، و رغم وسامته و بنيته و سنه إلا أن المسكين لم يجد أو تجده التي تشاركه حياته حتى الآن.

كلامه حرك عواطفي، و نبّه إدماني، ما جعلني عندما خرجت من عالم الزجاج و المرايا أنطلق مباشرة إلى المكان الذي أتعاطى فيه مخدري.

و أنا في طريقي إلى الهاتف العمومي، تشتت رأيي بين أن أتصل به أو لا.

حقيقة لم أعد أستطيع الكذب على نفسي أكثر من هذا الحد، صارحته بأني لم أعد اشتاق لسماع صوته فحسب، بل أجن عندما أسمع اسمه يتلفظ به أحد ما..

الديمورول، البروبَوفول.. كلها عقاقير تصبح مجرد مسحوق سكر أمام حبه.

اشتاق إليه بعد مرور ثوان على آخر مكالمة.

لما أنظر في المرآة، اقرأ على جبيني حلا أستنجد به في حالات كهذه، حل كلاسيكي عاهدتُ عليه نفسي و صادق عليه قلبي أن يكون دستورا جامدا: «أن تسير بمهل و تعلم أنك ستصل، خير من أن تجري و لا تعلم إن كان الحبل سينقطع».

طأطأت رأسي، ولا وجهة لي بعد سلطة الدستور إلا المنزل.

وفي المنـزل لا وجهـة لي إلا الغرفـة التـي أعتكفهـا، و في الغرفة أكيد سأطلب اللجوء السريري، و السرير حتما سيطالب بالحبيب..

لكـن مـع أمي لـن ينفعك لا اللجـوء و لا الإقامة الجبريـة و لا حتى المنفى.

- يـا آمـا، يا آما.. كون نطمع روحي نموت فلا بأس، لكني أخشـى الشلل.

- سمعتك جئت و لم تمرّي علي، أريد معرفة الجديد.

- رأيـت أن أغـير ثيابي ثم آتي لتناول الغـداء معك.. و الجديد، أعلم أنك لن تغادري حتى تسمعيه هو: لقد حصلت على منصب شغل.

- لسـتِ مجبرة على الشـغل، و لا أظن والدك سـيوافق على هذا، وما نطلبـه منـك إلا حصولك عـلى شـهادة البكالوريا، حتـى انخراطك في مدرسة الشبه الطبي لسنا راضين عنه.

رددت عليها مطمئنة بنبرة حزينة:

- سأحاول التوفيق بين الدراستين و العمل و حب القمر.

يا آما الباك وحده لا يكفي.

أحمد الله لأن أمي لم تسـمع بالوظيفة الثانية، الوظيفة التي أعمل فيها كعاشـقة للقمر الأسمر، هي تقريبا مثل أبي في ضعف السمع الناتج عن تلاعبـي بالألفاظ عند مخاطبتهما، و هي مثـل أبي تماما في ردة الفعل، فإن سمعا بأني حقا أريد الطيران إلى القمر، لطيراني من الحياة.

في أغلـب الأحيـان إن لم أقـل في مطلقهـا تأكـد يا لمجـد أن للأبوين حكمة في كل ما يقولان و في كل ما يفعلان، بغض النظر عن مسـتواهما الثقافي أو التعليمي.

يوم كان أبي يمنعني من اللعب مع بنت الجيران، حينها كنت أستغرب كرهه لها، كنت أدافع عنها و أستميت لأجلها..

إن كنت لا تعلم:

للزمن صفحات، و لهذه الصفحات ألوان، يدل كل لون على الحالة التي كنا نعيشها آنذاك.

منا من له بضع صفحات سوداء تليها مباشرة أخرى بيضاء، تدل على انفراج حزنه بأفراح.

و منا من صفحاته امتزجت بالألوان كلها، أطعمته الدنيا من كل أصناف الحياة.

أما أنا لدي ثلاث أو أربع صفحات بيضاء، يليها جزء كبير من السواد ثم يعجز السواد أن ينتقل إلى البياض و يصبح رماديّا، و بقية سجل حياتي بين سواد و رماد..

أول صفحة من الجزء الأسود مكتوب عليها: «في هذا اليوم اتخذت فلانة خليلة».

و لن تصدق إن قلت لك أن هذه الفلانة التي لا أستطيع ذكر اسمها هي الأخرى، لأن الميت لا تجوز فيه إلا الرحمة، هي نفسها تلك التي كان ينهاني عنها والدي.

و إن كنت تعلم:

فإنه لا أحد قادر على محو صفحات الزمن، و لا تلوينها.. حتى الندم.

أعلمك أيها الجامعي قول الإمام علي: «من حذرك كمن بشرك».

لست محتاجا لنصائحي، و إنما أفعل هذا لسبب واحد فقط، في سبيل يوم كنتَ فيه...

لا تهتم، حاول أن تستفيد من سقطاتي، عند الانتهاء من هذه الرواية سأعلن اعتزالي.

يومها تتساوى عدد السقطات بالوقفات، على العكس تماما مما قاله معلم ياباني لطلابه: «لا أريدكم أن تيأسوا، لا تهتموا بعدد السقطات، لأنكم إن سقطتم أربعا فاعلموا أنكم وقفتم خمسا».

أما أنا إن سقطت خمسا، أقف خمسا.. و ما وقوفي إلا لأسقط من جديد.

«Don't try this at home!»

أعرف أن النساء لا يعنين لك شيئا- لا تسأل كيف عرفت فقد سألها من هم قبلك، أو بالأحرى بعدك -.

لكن الفطرة ستجلس لجانبك امرأة رغما عنك، و تنجب لك من الأطفال ما تمزق به جميع مبادئك.

ستتحمل غباءها، رائحتها، شساعة جسمها أو هشاشة عظامها.

و تتحمل هي تسلقك لتضاريسها، و تلبي بطاقة رغباتك، و لا ترفض ما تزرعه من قنابل جرثومية في أحشائها..

يا لمجد.. الحياة عادلة.

إلا حياتي و في رواياتي، فالعدل لا محل له من الإعراب.

إن هذا الذي أحدثك عنه ممكن جدا تعرفه، بل أنت تعرفه لأنه بيولوجيا رجل ككل الرجال، أما عشقولوجيا فهو ليس ككل الرجال، حبه الحقيقي جعل مني أتعس النساء.

فالحب الحقيقي (بيعش يا حبيبي) خطأ. هذا كلام متكسبين.

الحب الحقيقي هو أن تحب الشخص الوحيد القادر على أن يجعلك تعيسا.

فإن أحببت و مات عنك الحبيب (بخيانة أو هروب أو نسيان) و لم يترك في نفسك أثرا... لا تجادل، فذلك لم يكن حبا.

تعرفه أو لا تعرفه، هاهو الآن أمامك كتمثال، مجرد، كعين الفوارة، كمدينة.

نصب تذكاري مجمد، مجرد، مع محضر جرد..

دون اسم أو بطاقة تعريف، لا أريد استعارة اسم له، لا أريده أن يعيش بين أسطر كتاباتي مرفوع الرأس، أريده لقيط روايتي.

يكفيه الاسم المستعار الذي يعرفه به الناس، رغم أن اسمه الحقيقي لا يعلمه من بعد الله إلا هو، أمه، و أبوه.. و أنا.

من عدلنا نحن الكتاب – ميزة أخرى سمح لنا بها الإله – إذا قتلنا، منحنا الخلود لقتلانا.

أما صانع التعاسة روى روايته على جسدي، قتلني ثم منحني زيتا.

أرادني بهذا الزيت أن أحرق صفحات كتبي و صفحات جسدي.

ضعه على طاولة فارغة، في انتظار نصب أخرى قادمة، قاسمهم المشترك طاولة، كانت في زمن مضى جسد..

أنا التي تجعل من البصل تفاحا.

أنا التي جعلت من زيته و قودا لإلهامي، لشهوتي، لانتقامي..

طوّر نصيحتك يا دانييل كارنيجي التي تقول: «اصنع من الليمونة شرابا حلو المذاق».

الليمون فاكهة و لا مآل له إلا أن يكون شرابا.

يمكن أن تتحمل حموضة الليمون.

يمكن أن تتحمل حموضة سعر السكر.

يمكن شرب الليمون حامضا.

اكتشف قدراتك على مسافة قصيرة من شفتيك إلى حلقك، ثم تذوق طعم الانتصار.

ما أدرى البطن أن الذي رماه الحلق ليس تفاحا.

تعلم كيف تتداوى تلقائيا، غيّر برمجيات أعضائك:

العين لم تخلق فقط لتنظر... بل لتتكلم.

الأذن لم تخلق فقط لتسمع... بل لتتناول أقراص الهيبتادين.

اللسان لم يخلق فقط للتذوق... بل مضمد للجراح، سوط و سلاح.

أرجو أن لا يذهب كلامي هذا أدراج الرياح، و تفعل معي كما فعل تلميذ غبي مع معلمه عندما سأله عن سبب خلق الله للأذنين، فأجاب التلميذ: (باش نحطو فوقهم النواظر).

ممكن ألا يكون التلميذ غبيا، فلو لم تكن لنا أذنان، فأين يمكننا وضع النظارات؟ سؤال وجيه..

وعلى ذكر النظارات:

عندما رجعت إلى المحل للعمل بصفة رسمية، وجدت نجيم قد سبقني و وضع لمسات في المحل، لاحظت تغير بعض الأمور و حتى بعض التفاصيل الدقيقة لأني و ببساطة أجريت البارحة مسحة ضوئية شاملة..

خرج لي نجيم من المقصورة و هو لا يرتدي المئزر مرحبا ثم مردفا بشرح طريقة سير العمل، خاتما قوله بأن كل ما تحدث عنه متوفر بالحاسوب، من أسعار النظارات، و مواعيد التسليم، و أسماء الزبائن،... ثم حمل معه حزمة مفاتيح و همّ بالانصراف مودّعا.

استنتجت أنه اختار الدوام المسائي، تاركا لي الصباحي و هو الملائم للعمل لأني في المساء أتفرغ للدراسة.

دخلت المقصورة وجدتها منظرا عكسيّا عن المحل و ليس للمحل - فهو محل الانعكاسات - كانت الفوضى عارمة، بقايا زجاج و ورق على الأرض، مفكات البراغي مبعثرة فوق المنضدة، و كومة هائلة من الجرائد لعل بعضها يعود إلى يوم اختراع الطباعة.

تناولت حقيبة يدي و أخرجت منها اسطوانة لأغاني مايكل جاكسون، وضعته بالحاسوب و اخترت أغنيته الشهيرة «They don't care about us».

مايكل يقول في هذه الأغنية أن العالم لا يعترف بهم كزنوج.

و الرجال لا يعترفون بنا مهما نظفنا و مهما طبخنا.

حنيني لهذه الأغنية سبب اختياري، كما أنها ذات ريتم ديناميكي يعين على التنظيف.

لم أشأ أن يكون التنظيف معمقا لأن الأمر يحتاج لعدة حصص وجلسات.

اكتفيت بجمع و إخراج ما تناثر على الأرض، و مسح الغبار على الرفوف بالطبع لأنها الواجهة. كل البشر هكذا حتى في ماكدونالد (المزوّق من برّة، واش حالك من داخل؟).

لم أحرم نفسي من تجربة معظم النظارات حتى فكرت في اقتناء مجموعة منها - بما أن الكل يرتدي نظارات -.

تذكرت قصة لشخص كان قد راسل شركة مايكروسوفت العالمية لبرامج الحاسوب يطلب منها العمل كفرّاش، فردوا عليه بالقبول إن كانت تتوفر فيه مجموعة من الشروط، المسكين كل الشروط كانت متوفرة فيه إلا شرط واحد و هو أن يكون كل عامل في الشركة لديه بريد الكتروني.

وليكون لديه بريد الكتروني، فلا بد له من حاسوب موصول بالشبكة العنكبوتية.

توجه إلى محل لبيع الحواسيب فوجد أن النقود التي في جيبه لا تتكافأ وسعر الحاسوب، ولتأمين السعر كاملا خطرت بباله فكرة شراء صندوق بندورة ليبيعه بالتجزئة، وبعد أيام لاحظ أنه يكسب الكثير فأعاد الكرة حتى لم تعد سلعته مقتصرة على البندورة وحدها، إلى أن أصبح تاجرا ثم مصدرا لمختلف الخضر والفواكه...

سأله أصدقاؤه عن السر الذي جعله من بائع للبندورة إلى مصدّر تجوب خضاره معظم أرجاء العالم، فأجابهم أنه تعرف على الأسواق الخارجية بطريق الهاتف فقط، ردوا عليه أنه إذا كان مجرد الهاتف جعله هكذا، فماذا لو كنت تملك بريدا الكترونيا؟ فكان جوابه: «لو كان لدي بريدا الكترونيا لكنت فراشا في مايكروسوفت..»

كذلك أنا، إن اقتنيت كل تلك النظارات التي أعجبتني، سأضطر للعمل منظفة ومساعدة لأعوض الخصم الذي سيخصمه رب العمل من مرتبي.

رنّت الأجراس المعلقة فوق الباب منذرة بدخول زبون، و لأن الباب خلفي اكتفيت فقط بالنظر إلى المرايا لأجد كل الجدران اكتست بصورته....

سارعت لإخفاء ردة فعلي و حاولت جاهدة أن أبقى على طبيعتي، وضعت النظارات التي كانت بيدي قبل أن أسقطها و تفضح أمري.

تقدم مندفعا نحوي و كأنه في عجلة من أمره، استغربت قدومه، أتراه دخل إلى المكان الخطأ، أم يريد اقتناء نظارة، أو جاء لأجلي..

أخرج ورقة من جيبه و هو يلقي السلام.

لم أرد عليه طبعا، استلمت منه الورقة و أصابعي تريد أن تخبره شيئا، كانت تلك الورقة وصل لتسليم نظارة، اطلعت عليها وجدتها تحمل اسم أمه خضرة، متذكرة أنه أخبرني بإجرائها لعملية على مستوى عينها، وهي اليوم بحاجة إلى نظارة، و رماه القدر عندي و كأن ليس بسطيف إلا هذا المحل.

لم أستطع التخلص منه بأي سبب، لأن نجيم أكد له الموعد اليوم صباحا،.. ما بيدي حيلة سوى تلبية الطلب.

دخلت المقصورة لأبحث له عنها بين النظارات الجاهزة و لآخذ لنفسي وقتا مستقطعا استعدادا للجولة الثانية من المقابلة.

أتيحت لي فرصة مراقبته من كل الزوايا من دون أن يعلم، لا أنكر أني استمتعت بالنظر إلى تفاصيل جسمه، فالمرايا المنتشرة في أرجاء المحل منحتني صورة ثلاثية الأبعاد.

تستطيع المرآة أن تعطيك حصريا أصدق صورة.

و ما لا تستطيعه المرآة هو إعطائي نسخا لتلك الصور، أو تبقيه محنطا على سطحها، لأحتفظ به طول الزمن.

هناك حكمة تقول: «إن أردت أن تحبس رجلا و تعذبه في آن واحد،

فاحبسه في غرفة من دون امرأة، و إن أردت أن تحبس امرأة وتعذبها في آن واحد، فاحبسها في غرفة من دون مرآة».

على ضوء القول، هو لا يتعذب لأنني موجودة.

و أنا لا أتعذب لأن المحل كله مرايا.

لكن قلبي يتعذب و يصرخ من وراء قضبان القفص الصدري، لوجود رجل،.. رجل في المرآة.

كما يقول مايكل جاكسون في أغنيته الشهيرة «Man in the mirror».

حيث يقول:

I'm starting with the man in the mirror

سأبدأ بالرجل في المرآة

I'm asking him to change his ways

أطلب منه تغيير سياسته

I've been a victim of a selfish of love

قد كنت ضحية حب من نوع أناني

خرجت من المقصورة بدون حركات مدروسة، وضعت النظارة فوق المكتب و اتبعتها بمنديل و علبة فاخرة كهدية من المحل للزبائن «VIP»، يبتسم لي ابتسامة تغريني وترغمني على القفز من وراء المكتب لأتدلى على عنقه، ظللت أقاوم ذبذباته إلى حين مغادرته مودعا و شاكرا، لم أرد عليه السلام حتى وصل الباب بصوت خافت حتى لا يظن أني خرساء، أو أن هناك سببا ما يدفعني لعدم الكلام.

جاءني نجيم عند منتصف النهار سانحا لي فرصة الذهاب إلى المنزل لأتصل به بسرعة حتى لا أترك لشكه المجال.

ومضطرة أنا اليوم إلى تعديل دستوري، كما الدساتير العربية ليتسنى لي ذلك.

دخلت البيت مسرعة، هدأ من اندفاعي وجود أبي على طاولة الغداء، أرغمتني أمي على الجلوس فاتحة لأبي باب أسئلته الاستفسارية (يريد معرفة البيضة مين باضها و الجاجة مين جاجها) كما يقول أشقاؤنا في سوريا.

و بجهد، وحذر أحاول صدها دون تلعثم، و أمي تبادلني النظرات.

أحتسي ملعقة تارة، وأراجع الساعة تارة أخرى، لكن أبي بدا و كأنه يعلم أني أنتظر خروجه لهذا يتعمد التمهل في الأكل، عقارب الساعة تشير إلى الواحدة و النصف ظهرا.

لم أستطع تحمل المزيد، اندفعت مسرعة إلى غرفتي لأشبع إدماني، فبرنة واحدة من عقار الهاتفوفول ينتعش بدني و يهز صوته وجداني.

تبّا للعقاقير، تبّا للأدوية، تبّا للعلم...

أي علم هذا الذي لم يستطع حتى الآن أن يضع أصوات من نحب في أقراص أو في زجاجة دواء نتناوله مرا عندما نصاب بوعكة عاطفية بدون أن يدري صاحبها كم نحتاج إليه.

لكن قمري أفهمته أنه لو فكر في بيع كلامه، أشتريه منه بالذهب.

هذا هو الإدمان،.. لمن لا يعرف.

- مساء الخير..(يأتي كلامي كسولا)

- أهلا عمري..

كم أنهار عند سماع هذه الكلمة، يمتلكني أي رجل بهذه الكلمة، إنها سمسم بابي دون أن أخشى تسرب كلمة السر، من يريدني فليقلها (ليست دعاية مجانية).

أجبته بدلال:

- لا تبالغ، كثير منكم يقولها مجرد حروف على الشفاه، هذه الكلمة تقع تحت طائلة المسؤولية.

– ما هذه بمبالغة، إنسان يعيش بآخر يصبح حياته، عمره، نبضات قلبه، فإن سألتك هل يستطيع الإنسان أن يستغني عن عينه؟

– ممكن...(بعناد).

– لكنها أغلى ما يملك!!

وأضاف:

– يا ستّي، سأسألك عن الهواء و لا أنتظر منك إجابة، فرغم أنه مستحيل أن يستغني الإنسان عنه، لكن قد تجيبين بممكن.

اتهمتني بصاحب الكلمات المقتضبة، و أنت لم تري نفسك أنك في كل الأمور بين البينين، (ربما، ممكن، قد،...)، لا تجزمين إلا في (مستحيل).

أنت العينان، و اللسان و الشفتان، الهواء و الفؤاد..، أنت أنا، فمتى أكون أنا أنت؟

– صراحة لم أكن أرغب في الإفصاح عمّا يختلج بنفسي اتجاهك، لكن الحب وحده لا يعرف التكتم و لا التستر، تظهر أعراضه و تتكشف للعيان.

لم أعد أستطع أن أصبر عليك أكثر من اللازم، ليلي يطول و أرقي بيّض سواده، أحمل سماعة الهاتف في الليلة ألف مرة، أما النهار لا يكاد يمر يوم دون أن يذكرك قلبيَ، أتعلم؟ حتى في الجنائز تغير مصب القلب و مجرى الشرايين، كان أقرباؤك يندبون ميتهم و أنا في زاوية أخشى إحساسك بنظراتي تلتهم بدنك.

هذا الانشطار الذري داخل صدري يرغمني على الصراخ و أقول إني أحبك.

إن فاجأتك إحداهن بالتعلق في رقبتك أمام الملأ فتلك هي أنا.

يتمتم بكلام وهو يقصد إيصاله لي:

– شجاعة في التعلق برقبتي أمام الملأ، وجبانة في الإفصاح عن هويتها.

ويردف:
- أي جنـازة التقينا فيها، خصوصا إذا كانت في بيت قريب لي، فأنت قريبة مني، وأكثر مما أتصور.
- يا راجل رانا كامل أولاد حارة واحدة.
- إذن زال شـكي، اليوم صباحا وبتفكير معمق قطعت كل الشكوك التي طالما راودتني،.. هذا أنت إذن..

تتجمد يدي و تكاد السـماعة تسقط منها، أسأل نفسي لماذا في كل مرة أحمل له الشوق و يحمل لي الفجائع..

سألته كمن يريد جوابا عابرا:
- فمن أنا، إن كنت حقا تعرف؟
- لن أخبرك و سأتركك هكذا معلقة، تماما كما تفعلين بي.
- إذن أنت لا تعرف، فأنا اليوم لم أخرج قط من المنزل.
- و من قال أنك خرجت؟
- و ماذا تقصد بقولك أن شكوكك زالت اليوم صباحا؟
- مجرد تخمين، و المهم أني عرفت و لا تسأليني كيف و متى؟

خفقان قلبي يصعّد إلى السماء تارة و ينخفض إلى ما دون الصفر تارة أخرى.
كلامـه مـدٌّ و جزر، يأتي بي كقارورة فارغة إلى الشـاطئ ثم يسـتردني لتتلاعـب بي الأمـواج، لم أجـد مـا أهدده بـه لمصارحتـي، خصوصا أني فشـلت في تحليـل ردود أفعالـه عندمـا زارني في المحل، لم تظهـر عليه أية علامة تدل على أنه اهتدى إلي.
رجل الصمت هو، رجل الأراجيح..

سألته بنبرة تدل على غضبي:

- إن لم تصارحني فلن أكلمك بعد يومنا هذا، لقد لقيت من لدني عذرا.

- إن كان هكذا فأنت لا تحبين المزاح، ولا تتقنينه، ما هذه إلا كذبة أفريل.

- أقسم..

- أقسم لك أنه مجرد مزاح، يجب أن تحترسي نحن في شهر أفريل.

- ألم تقل لي أن شهر أفريل، شهر مشاريعنا؟ فلماذا جعلته شهر الأكاذيب، هذه العادة ابتكار أجنبي غريب عنا، ابتكروه لأنهم صادقون طوال اثني عشر شهرا فجعلوا لأنفسهم يوما يكذبون فيه، أما نحن نكذب على مدار العام، فيجب علينا أن نخصص يوما واحدا فقط لنصدق فيه.

- إذن أصدقيني الكلام..

- لم و لن أكذب عليك، هذا مجرد احتياط و كل شيء في أوانه جيد، أكل البطيخ في الصيف ليس كأكله في الشتاء، لقد ذكرتني بأغنية رائعة لهرم الطرب العربي السيدة وردة الجزائرية «أكذب عليك».

- تسبحين عكس التيار و الله، أولا ها أنت ذي تستمعين للغناء العربي وقد أنكرت ذلك سابقا خصوصا و أن المؤدي امرأة؟ ثانيا إذا كان كل شيء في أوانه جيد لماذا تتوحم النساء على كل ما هو نادر و ليس في أوانه؟، أما ثالثا فإني ألاحظ من كلامك أنك تنتظرين شيئا ما لينضج، و إلا فما دخل البطيخ إذن؟

أحرجتني أسئلته، فرحت أجيبه كيفما اتفق:

- لم أنكر يوما أني أستمع إلى الفن، أقول الفن العربي، وهناك نساء أنحني لهن احتراما لوزنهن في العالم وفي الفن والثقافة، أنحني فقط لـ: السيدة وردة، السّت فيروز، وماجدة الرومي.. وامرأة أخرى غير معروفة على الساحة العالمية. أما الرجال فهم كثر.

والتوحـم فكـرة غبيـة لا تصدر إلا مـن غبية – هـذا لا يدعم فكري المناهـض لعنـصر المرأة، فبـماذا تنعت مـن تطلب من زوجهـا أن يأتي لها بغـرض تعجيـزي لتقيس به مـدى حبه لهـا؟ فلنفترض أنـه جاءها بلبن العصفـور كـما يقولون، هذا لا يعكس قوة حبه لهـا و إنما إن أرادت فعلا معرفة مقدار حبه أن تطلب منه ما هو في متناوله..

ولكي أنسيه البطيخ رحت أستطرد في الكلام:

– تذكرت لم أخبرك أني تحصلت على وظيفة؟

– حقا، ما هي وأين؟

– مساعدة في محل..

ثم أضفت وكأني تذكرت شيئا مهما:

أخبرني.. نسـيت أن أسـألك عن والدتك و عن حالتهـا بعد العملية الجراحية؟

– شكرا على الاهتمام، إنها تتحسن.

– و ماذا عن الـ...

يقاطعني هول الطوفان مجددا، و يرغمني الموت أو الشلل على وضع السماعة.

– من كنت تكلمين؟ (أمي مزمجرة).

– آآ.. ز.. صـ..

و ينطلق لساني على ذكر اسم لا أدري من أين لي به على أنها صديقتي: كنت اسألها عن بعض الدروس.

ترد أمي بنبرة كأنها تشك في إجابتي:

– الجلسة التي تجلسينها لا تدل على أن الموضوع يدور حول الدراسة.

عـلى كل حال جئت لأخبرك بـأن أباك مضطر لتقديم موعد الإجازة بأسبوع كامل أي ثلاثاء 08/ 04 بدل ثلاثاء 15/ 04 و ذلك لعدم توفر

أماكن شاغرة في طائرة الأسبوع القادم، لهذا سنستدعي أخويك ليأتيا غدا و نقوم بتوديعهما، و أختك ستأتي يوم السفر.

أخواي يعملان في شركة عمومية بعيدة، لا يرجعان إلى المنزل إلا أيام نهاية الأسبوع، جاءا بسرعة و غادرا بسرعة، أما أختي تأخرت إلى غاية يوم الثلاثاء لأنها قريبة منا و لأن لديها شيطانا و شيطانة يتعبانها (لكني أحبهما..).

و استغربت استقدام خالتي العجوز.

خرج أبي وأمي من غرفتهما يجران الحقائب، تنظر أمي إلينا الواحدة تلو الأخرى، إلى أن استقرت عندي و أخذت تملي علي جملة من الوصايا و صوتها و تعابير وجهها يبينان مدى حزنها على مفارقتنا.

انتزع أبي منها الكلمة ليرشدني إلى الكمية الكبيرة التي ابتاعها من المواد الغذائية، و أضاف لي مبلغا كبيرا من المال و أوصاني بصرفه كاملا دون أن أترك أحدا يحتاج لشيء، و طمأنني في الأخير بأنه سدد جميع الفواتير - ذكي، كي لا أجد عذرا -.

و حتى لا يتحول البكاء إلى عويل سارعا الى الخروج، أما أختي بقيت معي أنا و خالتي حتى المساء لتطمئن على وصولهما بأمان.

إجازة أبي جاءت في محلها الصحيح لكل أفراد الأسرة، و من لم يحقق أهدافه خلال هذه الفترة فلن يحققها ما عاش من الدهر، فبالنسبة لي كنت مسطرة مجموعة كبيرة من الأهداف، لكن تغير موعد الإجازة قلصتها إلى:

الهدف الأول اقتصادي: خالتي طاعنة في السن، تقتصر وجبتها على «البربوشة بالحليب»، أما أنا استطيع أن أقتات على السندويشات (لكن يوم مجيء إخوتي تختل الميزانية بعض الشيء).

الهدف الثاني سياسي: التنعم بالاستقلال، فمن الآن فصاعدا لن أسمع تلك الأسئلة الاستكشافية و الأوامر الروتينية: أين كنت؟ و إلى أين تذهبين؟ كفي عن مشاهدة التلفاز، راجعي الدروس..

الهدف الثالث أمني: القضاء على ظاهرة مداهمة الغرف.

الهدف الرابع عاطفي:... واش نحكي و واش نخلي..

أقضي الصباح في المحل و المساء في الدراسة، أرجع إلى البيت أسأل خالتي أن تفيدني بجريدة اليوم التي نادرا ما يكون فيها جديد من اتصالات هاتفية أغلبها من أختي، أشغل لها التلفاز و أتركها خاشعة أمامه فهي تعشق برامج الفتاوى (على الهوى)، إلى أن أجهز لها عشاءها المفضل ثم نجلس نتبادل أطراف الحديث إلى موعد صلاة العشاء، تصلي ثم تحبو مباشرة إلى فراشها لتخلد إلى نوم عميق..

ليل خالتي هو نهاري، فمن يوم أن أعطيته الضوء الأخضر ليتصل بي من دون أن أرن له، أمسى لنا موعد ليليّ لا يخلفه أحدنا عند طاولة الهاتف، بقينا على هذا النحو مدة أسبوع كامل دون حصول أي جديد في العلاقة، الجديد الوحيد بالنسبة لي هو الاستمتاع بالحديث طويلا دون انتظار الانهيار المتدفق على الباب، بل لم أعد بحاجة إلى غلق الباب (صراحة، اشتقت كثيرا إلى أمي خصوصا أنها نادرا ما تغيب عن المنزل، لا نستطيع كبح دموعنا عندما نكلم بعضنا عبر الهاتف، أحبك يا ماما، واشتقت لطوفانك..).

* * *

في ليلة ماطرة ذات ريح وبرد شديدين، رغم أن شهر أفريل قلب فصل الربيع إلا أن خالتي فسرت لي هذا الاضطراب الجوي العنيف بـ«الفطيرة» وطمأنتني بما تعجز النشرات الجوية عن تفسيره بأنها آخر فطيرة لهذا تكون قاسية، و السبب في اعتقادها أن فصل الشتاء يبقى مدينا للربيع ببضعة أيام باردة، و هاهو اليوم يسدد آخر قسط..

لم أجد ما أسلي به نفسي غير جهاز الراديو الذي أنمته على سريري وأسكنته عند أذني، المحطات على كثرتها تجعل المستمع للوهلة الأولى يظن أنها أبرمت اتفاقا مع بعضها في بث برامج متشابهة.

فيا ليت الريح ذهبت بالبث الإذاعي كما فعلت بالبث التلفزيوني.

تحملت سماع «المحتمة» إلى أن دوّى رنين الهاتف في الفضاء الفسيح، أسرعت في اختطافه خشية إيقاظ خالتي:

- هذا أنت؟ أين ذهبت؟ ظننت أن الريح أخذتك.

- وصلت منذ ربع ساعة تقريبا، راني متشمخ كي الجرد..

- على الأقل كنت لتتصل وتطمئنني بأنك ستعاود مكالمتي حالما تصل إلى المنزل، و لا أضطر إلى إعارة سمعي واهتمامي إلى هذا المذياع.

- لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب..

- أولا: هذا مثل خاطئ، لأنه لا يوجد صيام في رجب.

ثانيا: قل لي فقط، ما قولك في برنامج يطلب فيه المذيع آراء المستمعين في مواضيع اجترت آلاف المرات من طرفنا أو من غيرنا..

و إذا كان رأي المستمع لا يقدم و لا يؤخر، و لا يخرج لا هو و لا المذيع بنتيجة فلماذا يطلب منهم الاتصال؟.. إذن لا نريد رأيك، نريد اتصالك.. لولا الخشية من ضحك العالم علينا لجبذ مذيعونا أن يتصل بهم الناس و يبقوا صامتين..

اليوم مثلا، قال لهم موضوع الحلقة هو: ما رأيك في من يرمي القمامة عشوائيا؟ هنا لا تكفي سذاجة المذيع و موضوعه و إذاعته، حتى نضيف إليها سذاجة الناس، عندما تسمعهم يخيّل إليك أنهم ملائكة، لكن لو تطّلع على بيوتهم «والله» الجرذان عندهم أرانب..

تقاطعني قهقهاته ثم يقول:

- أما أنا فالإذاعة التي اتصل بها سببت لي عجزا اقتصاديا، لهذا أصبحت استعمل الهاتف الثابت..

- حبيت ترجعنا Matrix؟

يواصل كلامه:

- الفـرق هـو أن الإذاعة التي اتصل بها هي مـن تعطيني الآراء و أنا المستمع.

- يا سيدي إن لم تكن لديك آراء فهي سهلة الصنع، و لصنعها هناك طريقتان:

الطريقـة الخلدونيـة: تصلـح إن كنت بين قطيع غنم، فـإن نزلت بك إحدى المبهمات هيئ لها حشوا رثا من رأيك ثم اقطع به، و النتيجة تسمع التصفيق و الهتاف بأن يحيى اسمك..

و هنـاك الطريقـة الـ.. طريقتي أنا: إن قلت كلامـا بليغا و أردت أن تتلقاه الآذان و يرسخ في الأذهان و لم تجد إلى من تنسبه فقل:

«مثل صيني»..

أذكر يوم كنت في التعليم المتوسط طلبت منا المُدرسة أن نكتب مقالا عن الطبيعة و يجب أن نستشـهد على الأقل بمثل أو حكمة، كل زملائي أكلوا عقوبة باستثنائي أنا لأني اخترعت مثلا لازلت أحفظه حتى اليوم، قلت لها: هناك مثل صيني يقول: «بلاد بلا طبيعة كمسؤول بلا رفيعة»..

ينفجر ضاحكا و هو يقول:

- لو قلته لصيني لصدق..

- ما زلت لحد السـاعة استغرب هذا القول، و كيف سولت لي نفسي قوله؟

- فلنترك الصين و لنرجع إلى هنا..

- هنا الجو ماطر و البرد رمان (قارس).

يرد ضاحكا من جديد:

- أتعلمين أنك خفيفة الدم؟

- كل النـاس يقولون لي هـذا الكلام، و أنا أرى عكسـه، أنا قلبي لو اطلعـت عليـه بالإيكوغـرافي، لوجدتـه في الصغر كحبة مشـمش، و في السواد كقطعة فحم.

- علاش؟

- لا تقل علاش و قل علاه، و على خفة الدم التي تتهمني بها، و على ذكر المشمش و سؤالك «علاش» تحضرني نكتة، أأحكيها لك؟

- طبعا.

- يا سيدي كان هناك شخص - معروف على المستوى الوطني - زار تونس، سأل أحد الباعة عن سعر المشمش قائلا: «بقداش المشماش؟»، رد عليه التاجر قائلا: «نحن في تونس لا نقول بقداش، نقول بقداه»، فأعاد هذا الذكي - بذكائه الخاص -: «بقداه المهماه؟».

و إذا بي أسمع سعالا شديدا تتخلله القهقهات، ربما كانت هذه أكبر ضحكة على الإطلاق تزور وجهه، كنت أقضي معه أسعد الأوقات و هو يقضي معي أجمل الليالي.. باعتراف منه.

نقطة أحسبها لنفسي بكل موضوعية، فمن قبل لم تكن البسمة تعرف طريقا إلى ثغره، كما كان ساعي البريد لا يعرف عنوان منزله.

زاد تعلقي به حد الجنون، بل كنت مجنونة به حد التعقل.

بل إني لا أفرق بين الجنون و العقل.

لا أظنه اليوم قد نسي ذلك الجنون.

ينسى جنون العظمة، لكنه سيخلفه جنون الصدمة.

ينساني ممكن، أو لنقل نعم..

ينسى حبي له، لا.. مستحيل.

و كلانا لا ينسى الرسالة.

و كلانا يحتفظ بمقص التدشين.

أيتها الرسالة المقص..

يا من قطعت رنين الهاتف، و يا من بحضورها انتهى الرقص على نغمة «لا» و يا من غيرت مسار نبضات قلبينا عن الأزرار.

ما زلت أذكرك..

تلك الرسالة الجملة أو الجملة الرسالة:

«اعلمي أن شهر مشاريعنا قارب على الانتهاء».

و لا زلت أذكر ردي الجواب أو الجواب الرد:

«و اعلم أن حبي يصارع آلام المخاض، و لتعلم أن الحب وحده الذي لا يقبل التخطيط المسبق، الحب لا تهمه التقويمات و لا الفصول، و لا تهمه الآجال و لا المواعيد..

بل الحب يصنع لنفسه تقويما آخر، يحتفل برأس السنة عند ميلاد أول لحظة حب و تنتهي عند آخر شهقة ليبدأ تقويم ميلاد جديد: تقويم الهجران و النسيان..

حياتنا النفسية مؤرخة بكم من التقويمات غير التي نعرف: الميلادية والهجرية والخنزيرية..

لهذا و أنا على منبر القلوب المتحدة أقول: قررنا (الله يرحم ترابك يا موسطاش يا سيد الرجال) تأميم الاتصالات، وطرد الهواتف المتعددة اللغات و الرنات من صحراء حبنا الواسعة.

غدا على الساعة العاشرة صباحا في مقهى الانترنت».

اتصلت بنجيم.

أردت الإكثار من الاتصالات.. كأكل اللوز.

أريد من نجيم أن يخلفني وقت دوامي.

زيفت لخالتي قصة خروجي.

رتبت أغراض غرفتي كمن يخشى عدم الرجوع.

لم أهيئ نفسي لهذا الحدث.

لم أحفظ كلمات معينة لأسردها.

لم أصطنع جمالا و لا ألبسة لأظهر بها.

أمشي بخطى ثابتة، استغربت نفسي و كأني ذاهبة إلى مشوار عادي.

فتحت الباب و دخلت مباشرة أبحث عن رأس مدور و وجه

أسمر، غير آبهة بصاحب المقهى ينادي بعدم وجود مكان شاغر، توقفت خطواتي عند الجهاز رقم 07.

بدأ قلبي ينط و كأنه كان خارج مجال التغطية، و لما لامست يداي عينيه لأغمضهما هزت بدني قشعريرة أحس بترددداتها كل من كان بالقاعة، دنوت إلى أذنه أهمس له بكلمات مرتجفة: «اليوم جئتك برجلي، أحمل كفني بيدي».

و بعدها بادر بفتح أصابعي بإرادة مني كل إصبع على حده، فتحت جميع أصابعي، و أبقيت وجهه متسمرا إلى الأمام مؤكدة له أني لن أطلق سراحه حتى يعدني بأن يتقبلني مهما كنت، أو على الأقل لا يجلب انتباه أحد حتى نغادر القاعة.

لحظتها عشت أصدق لحظة في حياتي مع وجداني.

دائما لما يسأل سائل أكيد أنه ينتظر الجواب.

أما أنا فسؤالي لم يكن ينتظر الإجابة.

مهما كانت الإجابة، فهي يجب أن تكون «نعم».

بناء سد عظيم لن ينهار بمجرد إضافة دلو ماء. و قشّة لن تقسم ظهر البعير.

سؤالي أحكم عليه بنفسي بأنه ليس له محل من الطرح.

.. لشح اللغة.. القضية الحدث.

و لصدق الذات، لم ألمس في حياتي جلد رجل.

لم تتذوق يداي في حياتي وجه رجل.

الرجل الذي أحببت، لا أقول الأول و لا أقول الأخير.

عندي تتكسر كل القواعد، لا أبدي اهتماما لمن يقول الحب الأول لا يتحول.

الحب الأخير (أخذ الخير و الخمير).

إنه الرجل ذو البعد الرابع، النقطة البيضاء المتوسطة..

]∞+،H2S2،∞ -[

يا للذة يدي عند ملامسة القمر الأسمر.
يا لرجل غاغارين عند ملامسة القمر الأبيض.
بدأ يتحسس الطاولة بيده لعله يجد شيئا يعينه على التحرر من يدي، اهتدى إلى نظارته التي وجهها إلي ليعرف من أنا؟
سحقا لنظارة عجزت لتخبرك عني بالأمس.
و سحقا لنظارة ستدلك علي اليوم.
و لما بادرت باختطافها تحرر من يدي و يلتفت مباشرة إلى خلفه ليجدني..
...
....
لو يسمح لي الأدب.
لو يسمح لي كاتب ياسين و الطاهر جاعوط.
ولو يسمح لي غوتمبرغ.
لتركت بضع صفحات بيضاء.
لعل صمت البياض وحده سيتكافأ مع صمت اللقاء.
تجمد الجسدان..
تجمدت النظرات و الريق في المريء، و اللسان..
تجمد الدم في الشرايين..
بقينا كتمثالين، ينظر كل منا إلى الآخر دون التجرؤ على الكلام.
أين اللغة؟ أين الكلام؟
أمسك بيدي ليجلسني إلى مقعد إلى جانبه و هو يتمتم بكلام خافت حيران، ليس خشية جلب الانتباه فالموقف الذي نحن فيه جعلنا ننسى من حولنا من الحضور، و إنما هو الذهول..
ظل يردد تلك الكلمات كعالم مجنون أثبت نفي نظرية ما.. و هو يقوم باسترداد للذاكرة..
(اسمي أوله فلك يسبح في البحر، و آخره يسبح في الفضاء..

س: سفينة
ن: نجم
أنا قريبة منك على بعد ذراع..
حتى الجنائز..).
يغمض عينيه بقوة، و يضغط على يدي قائلا و كأنه يلوم نفسه:
- كيف لم تخطرِ ببالي؟
بقيت أتحمل يديه الخشنتين اللذيذتين، و أنا عاجزة عن تفسير ردة فعله: أيلوم نفسه لأنني كنت أنا، أو أنه تمنى لو لم أكن أنا؟
هذه اللحظة أشبه بلحظة الاحتضار، لا شيء ينفع، لا الهرب و لا المراوغة.
فقط واجه الأمر الواقع، و انتظر ما ستسفر عنه الواقعة.
يفتح عينيه لينسدل ستار عن محيط مغرورق مغري، و هو يلوم نفسه من جديد:
- نصحتني بالذكاء و ما زادني ذكائي إلا غباء، لو سلمت الأمر للطبيعة و الفطرة لاكتشفتك عند وصول أول رسالة.
للحب بوصلة لا تخطئ، تدلك على الحبيب و لو كان في بروج مشيدة..
تماما كما تقولين: «الحب كما الموت»..

فرض علينا الموقف أن نكون طفلين يتلاومان، نوجه لبعضنا أصابع الاتهام، من كان السبب في تأخر فصل الربيع؟ و من كان السبب في مد جسر لا نهاية له و لا مهبط؟
حذفت كل الأبعاد..
لقاؤنا ألغى البعد المكاني، فكل من كان بالقاعة أصبح لا محل له من الوجود.
ولا البعد الزمني كان له اهتمام، فلو أسرع ماسك دواسة الزمن ومرر

مائة سنة في تلك اللحظات أو أوقفها، ما كان لنا إحساس.. ما كان لنا احتجاج..

أوراق الذكريات تتناثر من حولنا، مبشرة بأفول فصل الخريف.

خريف في أواخر شهر أفريل.. بتقويم الحب الجديد..

لم أجد ما أفعله خصوصا عندما وصلنا إلى تلك الرسائل التي يخجلني بها، كان في كل مرة يشير إلى صورة رومنسية كنت أبعثها له وكأنه يذكرني بوعودي..

انتشلت يدي من قبضته و هممت بالوقوف..

وقف معي وعيناه مثبتتان في عينيّ، و شفتاه منفصلتان.

خفت أن يقوم بأي حركة جريئة و غير مدروسة، لكنه كان يحترم الحب، يتقن اللعب، و يتحدث لغة العيون.

ما من شخص لا تتوفر فيه هذه المواصفات في سيرته الذاتية، لا يستحق اعتلاء منصب عرش القلوب..

لما سكتت العينان، نطق اللسان:

- لا أدري هل حقا تعجز اللغة عن رسم حالتنا الداخلية أم نحن من يعجز عن التعبير بها في مواقفنا الصعبة؟

لو كان العيب في اللغة ما نزل بها القرآن؟

ولو كان العيب فينا ما نطق اللسان؟

سنستدعي الهاتف مجددا، نلجأ إليه كوسيلة للهروب، كمخرج نجدة من ورطة اللغة (كما نعتقد).

للهاتف ميزة كسر الحواجز، له سلطة المواجهة من وراء جدار، مبارزة بأحزمة أمان..

الهاتف هو الآلة الوحيدة التي تتكلم بكل اللغات و اللهجات، إلا اللغة التي نفهمها و نتقنها نحن الاثنين.. لغة العيون.

تحركت شفتاه الرقيقتان المائلتان إلى الزرقة:

- سأطلبك هذا المساء في الهاتف لنكمل ما لا تستطيع العيون قوله.
أومأت له برأسي و بلغة العيون أجابه جفني: نعم، «just do it» أنا في الانتظار.
لمست شتات أفكاري و فتات الكلام داخل حقيبة يدي، و هممت بالخروج مودعة دون كلام و كأننا أخذنا وقتا مستقطعا لمباشرة الجولة الثانية من اللقاء، أما الشوط الثالث فيبقى رهين النتائج المتحصل عليها في شوط (الوجه للوجه) و شوط (الفم للأذن).
أمشي و لا أدري أي عالم يحويني؟ أي قريبة أو صديقة تقاسمني أوجاعي أو تقابل مولودي؟ أين أنا من هذا الزحام؟
اختلطت حواسي، ما عدت أفرق بين سماع سيمفونية الأمواج تعزف في أذني أم أنا التي أترنم بها، سيمفونية ابتكرها كريستوف كولومبس على وزن تلاطم الأمواج لتبعث القوة في البحارة الجائعين و الطمأنينة لدى الربابنة اليائسين من وصولهم إلى البر، سيمفونية تعرف اليوم باسم conquest of paradise:

لا، فا، مي، ري، دو، ري، مي، دو، لا
لا، فا، مي، ري، دو، ري، مي
صول، لا، صول، فا، مي، فا، صول، مي، دو
ري، دو، لا، فا، مي، ري..

و تماما ككريستوف الذي غادر الهند آملا أنه سيعود إليها من جانبها الآخر ليبرهن للناس كروية الأرض، رمت به الأقدار إلى سواحل القارة الأمريكية الجنوبية، برمجت نفسي لأذهب إلى المحل لأخلف نجيم وجدتني أمام المنزل.
مسكين نجيم، عليه أن يتعود على اتباع تقويمي الجديد..
الوقت مبكر جدا على موعد المكالمة..

استمعت لصديقي و مؤنسي في آلامي و أفراحي... مر العصر الكربوني.

قرأت كتابا... مر العصر الجوراسي.

شاهدت التلفاز... مر العصر الترياسي.

جلست أمام حوض الأسماك... مر العصر الطباشيري.

لم يتبق إلا العصر الجليدي... أمضيته مع خالتي.

من منتصف النهار إلى أولى ساعات الليل واكبت مختلف عصور الزمن وكنت شاهدة عيان على سقوط النيازك و انقراض الديناصورات..

من يريد السبق الصحفي فليتصل بي؟..

وأخيرا حل العصر الليلي الحديث، ليشق صمته رنين الهاتف في الفضاء الفسيح.

انظر للمرآة لأصلح وجهي و كأنه سيراني.

تمارين رياضية و صوتية، و بعدها اختطف السماعة:

- ألو..

يرد بتعجب:

- الصوت حقيقي.. انتهت الحفلة التنكرية، سقطت الأقنعة الصوتية..

أبشره:

- ذاب الثلج وبان المرج، هنيئا لحبنا بفصل الربيع.

- قتلتِ شخصية رشيد، و أغلقتِ مكاتب المخابرات، و حذفتِ كل وسائل الاتصال، فمتى تحذفين هذا الجهاز اللعين؟

- لا.. أنت أعلم مني بما يستطيع الهاتف القيام به، و إن كنت بارعة في قتل الشخصيات، فتأكد أني سأحيي أخرى، ستكتشف من اليوم شخصيتين: تلك التي في الحضور هي ليست نفسها التي معك الآن عبر الهاتف..

يقاطعني ليغير مجرى الحديث:

- حقا لا ينفع الندم كأس اللبن المترامية شظاياه، لكن ليتك...

- لا تبدأ بالتذمر، إذا كنت نادما على ثلاثة أشهر، فما زال أمامنا الدهر كله و (كون سبع و كولني).

- منذ افترقنا منتصف هذا اليوم، ذهبت إلى المنزل راجعت جميع رسائلك، و أرجعت ذاكرتي جميع اسطوانات حديثك، وجدتك فعلا مسلسلا مشفرا مبعثرا، وجميع حلقاته بحوزتي، لو استعملت الذكاء كما نبهتني لاستطعت ترتيبها و فك شيفرتها.. في أول رسالة تلك التي وصلتني بالبريد العادي تعمدت الكتابة بضمير المتكلم المحايد، لكن المرء مخبوء تحت لسانه، و قلمه، بحرف واحد اكتشفتك أنثى و كان حريّ بي أن أتفطن إلى قولك أنك تبعدين عني قدر ذراع و أننا التقينا في جنازة عمي الطيب، و لم أزاوج بين مغادرتك مقهى الانترنت عندما التقينا و عدم وجود رسالة حينئذ..

أما الفرصة الذهبية، يوم زرتك في المحل و أغنية مايكل جاكسون تنادي: إن التي تبحث عنها واقفة أمامك، رغم أني كلما صادفت صورته أو اسمه في الصحف أو القنوات التلفزيونية إلا و تذكرتك..

و عزوفك عن الكلام.. فكرت في كل شيء إلا أن تكوني أنت.

بغض النظر عن كونك تعرفين من أجالس، و اسم أمي، و أحرف اسمك...

كلها كانت حلقات سهلة الربط لكن أعترف لك بالفشل.

سيشفع لي ربما الشطر الثاني من الشرط، غاب الذكاء و حضرت الصراحة.

أجبته مهنئة:

- أكيد، لك العلامة الكاملة فيما يخص الصراحة، لأنني لو شممت...

- لا نعكر صفو اللقاء، و اتركيني أقضم الفرحة على مهل، لا أستوعبها دفعة واحدة و إلا توقف قلبي.

– لا، لا أريد من قلبك أن يتوقف الآن و إلا أصبحت كالصغير الذي «عمرو ما حبى، و كي حبى طاح في البير»، من الآن فصاعدا أنت الذي حكمت على نفسك أن تكون سجيني مدى الحياة، تحمل العواقب.

– لو كان حبك سجنا فنعم السجن، و أتفنن في كل الجرائم لأرده، وإن كان نارا فنعم النار، و أغلق أبواب كل المطافئ لأشتعل بهدوء فيه، وإن كان جحيما فنعم الجحيم، و.....

وأنا كذلك فمن الآن فصاعدا كلامي كله هكذا فلا تنتقديه ثانية بالمبالغة.

– لكن يجب أن يكون كلامك في حدود المعقول، سيأتي يوم و تنكر فيه كل تصريحاتك.

– ها قد عدنا مجددا إلى تعكير الجو.

– لا. و لكن سؤال فقط.

– نعم.

– هل سيكون يوم آخِر لعلاقتنا؟ هل أحببتني فعلا؟ هل أنت راض عني لأنني أنا؟ هل...

يقاطعني صارخا:

– هكذا أنتن النساء.. لقد طلبت سؤالا واحدا..

و يردف بنبرة أقل حدة:

– سأجيبك باقتضاب رغم أنني لست مجبرا على الإجابة، أحببتك قبل أن أعرفك، وتعلقت بك يوم اكتشفت، أنت بالنسبة لي اليوم كل حياتي: ممحاة ماضيّ، و قلم مستقبلي..

الآن تجبرينني على محاربتك بأسلحتك، ألست من يعتقد بـ«أمشي بالنية و أرقد مع الحية»؟.. اطوي هذه الصفحة.. دون أن تفكري في وزنها.

و أنا كرجل إن طلبت منك سؤالا فسيكون واحدا.

– تفضل، و أنا أسمح لك بعشرة.

- سأطرحه حتى و لو لم أتلق منك الضوء الأخضر.
(تهلكني صراحته.. تلقائيته)
- ماذا عن الغد؟
أجيبه بسؤال آخر ليشرح سؤاله المبهم:
- المعنى؟
- أقصد كيف ستكون علاقتنا مستقبلا، فيما يخص الاتصالات، ترتيب اللقاءات...
أجيبه بغرور:
- دع تلك المهمة لي، أنا أتولى تدبير كل شيء.
يرد و كأنه يخفي فرحته:
- هكذا أريدك، أنت فكري فقط و اتركي لي التنفيذ، لأنك أنت أعلم مني بظروفك و حتى ظروفي ما يسهل عليك مهمة تسطير اللقاءات والاتصالات..
ثم يواصل بتثعلب ظريف:
- فغدا مثلا كيف سنلتقي؟
أسأله و أنا أخفي رغبتي في لقائه كمن (يحوّس على اللبن و محبّي الطاس):
- على مهلك، لقد التقينا اليوم.
- لكني اشتقت إليك.
في القديم، أقصد العصور الوسطى لعلاقتنا كان قلبي مضبوطا على رنات الهاتف، فلا تحرميه اليوم التمتع بتطور العصر.. بتطور العلاقة.

اقترحت عليه فكرة كنت قد فكرت بها خلال العصر الكربوني، عندما كان مايكل يدندن،لكن تظاهرت بجدتها عندما طرحتها عليه.
أتعمد إخفاء لهفي عليه، لم أدعه يلحظ عشقي الأرض التي تدوسها قدماه، هكذا لكي لا أكون هذه المرة أنا اللوز، أروي زهرة حبنا بطريقة

السقي بالتنقيط قدر ما تعيش، لا أريدها أن تموت بفرط التخمة.

كم انتظرت ذلك الموعد؟ بل كم انتظرت لأرى وجهه؟

كأني أنتظر شخصا قادما من وراء البحار، و هو لا يتعدى وجوده خلف الجدار.

يعلمك الحب أن تقوم بتصرفات طفولية، أو أن تصبح قصتك تشبه الأفلام الهوليودية.

تمنيت لو باستطاعتي التحكم في الزمن، تمنيت آلة تصغر الحجم، تمنيت مُخرجا ينهي فصول روايتي..

رغم أني أنفقت جل الليل معه عبر الهاتف، إلا أن صباح الموعد أبى الطلوع، عند انقطاع الخط اشتاق إليه مجددا، حتى أصبحنا نتخاصم في من سيضع السماعة أولا، لم يعد يرضى كل منا في قطع الخط في وجه الآخر، و تماما كالصبيان وجدنا الحل في العد حتى الثلاثة و نضع السماعة في آن واحد.

أي حب هذا؟

و أي حب تشبع لأجله الوسادة أذنيك بمختلف الإهانات و الشتائم عندما تريد أن تخلد إلى النوم؟

إن أغمضت جفني يكون آخر صورة يراها خيالي، و إن استيقظت يكون اسمه أول حركات لساني..

فإذا صحوت فأنت أول خاطري وإذا غفا جفني فأنت الآخر

* * *

في أول صباح لي في عامي الجديد، تحملت مشقة السير إلى خارج المدينة، إلى المكان الذي سأجده ينتظرني فيه، مكان طالما مررت به وتمنيت الذهاب إليه، في مدينتنا ممنوع أن تذهب إلى هكذا أماكن وحيدة (أو حتى وحيدا). كثيرا ما رغبت في أن يصطحبني شخص إليه خصوصا

أن زيارة هذا المكان لا تحلو إلا مرة واحدة في السنة عندما تبدل الأرض غير الأرض لتصبح أمواجا تتلاطم من السنابل الشاهقة على مد البصر، تتراقص على نغم هادئ منسجم مع نسيم عليل..

.. و لسخرية القدر، أهداني مرافقا ليس ككل البشر، إنه القمر الأسمر..

لم أشعر بانقضاء ساعة و نصف من المشي على الأقدام، ربما للحب طاقة فريدة، أو ربما لأني أردت فاستطعت.

لاح لي في الأفق بحر أخضر و لمحت على شاطئه شخصا يتظاهر بتنظيف سيارته، أخذت خطواتي (و لست أنا) تدنوان منه شيئا فشيئا حتى أوصلتني إلى صندوق السيارة المفتوح، و جلست فيه.

و قف عند رأسي و هو يبتسم و الحيرة تعلو جبينه:

- لا سلام و لا كلام، هكذا فقط يكون مجيئك؟

رفعت رأسي متظاهرة بالعياء الشديد:

- واش حبيت نجي بالبنادر؟

جلس إلى جانبي و بدأ بتلطيف الجو ليتقي شراستي:

- يا لالة، لو اتصلت بي لحملتك فوق ظهري، و الآن قولي لي: كيف خطر ببالك هذا المكان؟

- هناك أمكنة كثيرة بالإضافة إلى هذا أريد استكشافها، فأيما مكان أمر به يترك في نفسي علامة الإعجاب، أضع عليه علامة الزيارة.

- في مفكرتك أزمنة معينة، أضيفي لها الآن كل الأمكنة التي تودين زيارتها، و أعدك أن أجعل لحبنا معالم للذكرى، و ليست أياما فقط سنضيف لتاريخ حبنا الجغرافيا.

فاليوم مثلا: نحن في شهر ماي و المكان هذه الحقول الشاسعة من السنابل و الحدث هو ذهاب الحزن، أليس بزرقة السماء و خضرة الأرض و حضور وجهك الحسن كفيلون بطرد الحزن.

يسكت قليلا، ثم ينطلق لسانه بسؤال مباغت:

- أتحبين السنابل؟

- لا يوجد في السنابل ما يعجب إلا إذا كانت تملأ حقلا كهذا، نحن لا نستمتع بأكل حبات القمح الخضراء فهي لا تسمن و لا تغني من جوع، إنما نحن نستمتع بتعرية الأشياء، (كي نحكمو واحد نسنسروه) أي نجرده إما من الأجوبة، أو من المال، أو من اللباس..

معظمنا لا يحب الشيء لذاته، بل يحبه لأن الناس أحبوه، لو تقل أنك لا تحب الورد يراك الناس إما مجنونا أو أعمى أو عديم الإحساس، لا تصدقني إن قلت لك أني لا أحب الياسمين، كثير من يتغزل به و كثير من يحمله كاسم لكن أغلبهم يعلمون أنه نوع من الورود لكنهم لا يعرفون شكله و لا رائحته.

- خلقتِ لتعارضي.

- أبدا، و إنما أريد أن نرضع حليبا غير تلك الترهات التي رضعناها من ثدي أمسنا، لكل منا رأي، و لكل رأي احترام، لا مانع إن كنت ترى الذهب قصديرا، لكن يجب أن تقنع نفسك و ضميرك ثم الناس لماذا أنت تراه كذلك؟ ليس جدالا لتخالف و لتعرف، و إنما لتكسر كل تلك النظريات السخيفة التي لم تتطور رغم تطور الفكر، عار على العلم أن ينفي صحة نظرية داروين في هذا الوقت المتأخر..

ثم أردفت له كلاما هو في الحقيقة لا يدخل في رأيي و لا ينبع من خالص فكري مائة بالمائة:

- فمثلا قضية وسامة الرجال، شاهدت برنامجا في إحدى الفضائيات عن أوسم عشرة رجال في العالم (و أنا وحدي أستطيع ترشيح عشرة من حيّنا فقط أوسم منهم)، لا أدري ما أعجبهم في ليوناردو دي كابريو، في توم كروز، و في دافيد بيكهام... ربما ملياراتهم هي التي تعجب، فأين من هؤلاء وسامة هواري بومدين، شهامة الأمير عبد القادر، و سمرة الرجل الذي بجانبي...

دنـا مني حـد الالتصاق و لفني بذراعه جاعلا مني فريسـة أناكوندا، ثم قال:

- أترينني كذلك؟

لم أجب.

خيم سكون طويل بيننا و نظرنا مشدود إلى مكان غير بعيد، إلى تماوج السنابل، و أسماعنا تستمتع بحفيفها كسيمفونية تؤديها هذه الأوركاسترا الضخمة المتصلة بالأفق، و يقودها المايسترو «نسيم هادئ».

يلتفـت إلي بدرجـة ميـل منخفضة، يصلح خصلة من شـعري كانت تتـدلى على عينـي، ليقبل جبيني بعدهـا، حينها أدركت نقـص معلوماتي الطبية، لم أكن أعلم قبلها بأنه هناك مواضع غير العضد و الورك يتم فيها التلقيح أو التخدير.

شـفتاه أصابتنـي بوعكة غريزيـة تركتني جثة محنطة هامدة متوسـدة رقبته.

و من حين لأخر يحركني برفق حتى لا أثمل، و أنا من حين لآخر أرفع وجهـي لأراه و أتأكد مـن أنني معه، فكثيرا ما خاننـي حسي بأني أحلم.

من يقرصني، من يأتي بكلاليب لتقرضني فلست آبهة..

فرحتـي لا تقـارن بفرحة ناسـا يوم أقمـرت، بل لن يصدقـوا أني إلى جوار قمر..

تسـمرت عينـاي في عينيـه، لم أكـن أراهمـا مجـرد عيـون، اغوراقهما يهلكني، يجعل مني دمية رخوة بين يدي طفل تافه..

يسـتأذنني بفعـل عن طريق لغـة العيون، فـكلام اللسـان يعجز عن طلب الاسـتئذان في تصرف كهذا، أجبت بالقبول (هذا مفعول المخدر) جزاء لباقته و طلبه الاستئذان.. يحترم الحب.

أيـن العسـل؟ أين الشـهد؟ و أيـن التفاح و أيـن الفراولـة من طعم شفتيه؟..

شفتان زرقاوتان تقطران رحيقا، وجه بخدين ممتلئتين خشنتين غير محلوقتين، رأس مدور بشعر أسود قصير، كل هذا لم تره عيناي المغمضتين.. رأيته بيديّ اللتين لم تتركا قريبا إلا و تحسستاه و لا بعيدا إلا و وصلتاه.

شفاه ملتصقة بصمغ، وزفرات تشهق لألم الاشتهاء، وأيد تتلاطم وتتحسس الخدود والحواجب كالأعمى الذي يبحث عن نظارته في الظلام.

نال منه التعب، و نال مني العرق البارد، لكن الشفاه تأبى الانفصال.

ست ساعات تكفي لشحن بطارية سيارة..

لكن هذه الساعات لم تكن كافية لشحن ما ضيعناه في الأزمنة الماضية..

كلانا كان الشاحن و المشحون له، لهذا لم نشعر لا بجوع البطون و لا بظمأ الشفاه..

أي حب هذا؟

أي رجل أنت يا صاحب الصورة؟

كم أحببتك..

يوقظني من غفوتي بهمسه في أذني:

- حان وقت ذهابك، فالشمس قد قاربت الأصيل، و أخشى عليك أن يتأزم وضعك من هذا العرق البارد.

نهضت من بين أحضانه متثاقلة، و تلك النسمات التي كنت أنتعش بها أمست ترعشني، وضب شعري و رتب أحاسيسي، و ملأ حقيبة يدي بتوصياته، و ختم في الأخير بقبلة على جبيني وأردف بكلامه أنه سيطلبني هذه الليلة ليطمئن عليّ.

أيها الناس كم كنت أحبه، كم أحببته، كم سأحبه..
أيها الناس سأخبركم - عن طريق لمجد - أني معه فقط تذوقت لأول مرة الحب في جانبه المادي في حياتي.. و آخر مرة.
أيها الناس.. هذا حبيبي.
الرجل الذي جعلني أتعس امرأة.

***

الحب هو الحالة الوحيدة التي يعيشها المرء بسعادة و يقطف ثمارها بتعاسة.
يتغير موسم القطاف، أحيانا يكون مبكرا، و أحيانا يكون بطلاق بعد الزواج، و أحيانا أخرى يكون الموت الموسم الإجباري لقطف التعاسة.
نعيش الحب حتى نظن أنه أسعد منا على وجه البسيطة لا يوجد.
و عندما تنطفئ شمعة الحب، تضيق علينا الأرض بما رحبت.
و في الحقيقة لم نكن أبدا سعداء كما تمنينا، و لا تعساء كما نعتقد.
(و يا حليل اللي يعيش الحب متمرمد، و نهار يوم القطف يزيد يتمرمد)..

منذ عصور كان كل شيء موجود في هذا العصر ضربا من الخيال، لم يكن الإنسان البدائي يجرؤ على تخيل جهاز كالتلفاز مثلا، حتى اليوم لم نتخيل أن يصبح هذا الجهاز مجرد ورقة بعدما كان صندوقا بحجم خزانة..
لماذا لم يتطور الحب؟

أمثالي يطالبون بتطوير المصطلح فقط، لم نعد نرضى بحرفين يختصران ما ستخطه حالتنا العاطفية من مجلدات و دواوين، نريد مصطلحا إذا ما قلناه أو كتبناه نفرغ كل ما في قلوبنا و دفعة واحدة تماما كالبيضة عند إفراغها.

مع خالتي أحس أن الحب تطور في ذاته و طريقته، خالتي لم تكتشف عند مجيئي من موعد اللقاء أمارات حبي الظاهرة للعيان، ربما في شبابها لم تكن للحب علامات تظهر على العاشقين..

في القديم الحب هو الطرف الثالث في المعارك..

هو سم المنتحرين..

و دواء المعتلين..

و.. ردة العاشقين.

لو كان حبي له في ذاك الزمن لوئد قبل ولادته، بسبب واحد هو مخالفة أحكام العادات و التقاليد، فنحن ننتمي إلى قبيلتين مختلفتين منذ الأزل، القبيلة التي أنتمي إليها لا تصاهر قبيلته، لا يتزوجون منا و لا نتزوج منهم، لا يبيعوننا و لا نشتري منهم.

أوس و خزرج إلى أجل غير و لن يسمى..

حبي له عار و حرام.

فالحب مستحيل..

و التفكير فيه خطأ..

إذن مجرد التفكير في المستحيل خطأ..

كل مساء يخيل لخالتي أني مهمومة بسبب المصاريف، أو حزينة لوحدتي، أو مشغولة بالدراسة و العمل، فتأتي لمواساتي بألا أشغل بالي ما دام كل شيء على ما يرام..

خالتي لو كانت تعلم أني عاشقة لادّخرت مواساتها، فالمواساة لا تنفع لا في الحب و لا بعده.

باب النجدة الوحيد الذي أهرع إليه الموسيقى.

هذه المرة لم أخن مايكل جاكسون أنيسي في الأفراح و الأقراح، لكن الموقف يستدعي نوعا من الموسيقى التي ليست من اختصاصه: موسيقى التانغو..

موسيقى التانغو تلائمني في حالات الفرح الشديد أو الحزن الشديد تماما كعقار الديباكين الذي يصفه الأطباء لأصحاب القلوب الضعيفة الذين لا يتحملون شدة الفرح أو شدة الحزن.

التانغو تحمل عبق الحضارة الإسلامية من إسبانيا، و تؤديها مغنية كولومبية ذات أصول عربية، تغني غربي و ترقص شرقي.

تعجبني تلك الأغنية بالذات و أرقص عليها و أنا أبتسم أو و أنا أبكي، لأن مؤديتها رغم بعدها و غربيتها إلا أنها تغنيها من أعماق البؤس العربي.

أغلق باب الغرفة، و أرفع صوت الموسيقى إلى الحد الأقصى، تتهادى نغمات الأوكورديون منفردة و بهدوء، لتتفق من بعدها كل الآلات الموسيقية في مزيج رائع صاخب راقص، يهيّض الأرداف مزلزلا كل تضاريس الجسد، لأفرح قدر ما أشاء، دون أن يتأزم قلبي.

أرقص.. تنتهي الأغنية، أعيدها من جديد، أرقص، أقضم الفرحة على مهل..

و في لحظة ما أوقفتها، خشيت عليها من أن أكرهها من كثرة تكرارها..

فاللوز و الموسيقى و غيرهما من المحبوبات لدينا يمكننا نسيانها وكرهها بالإكثار منها..

أخلع الثياب عن جسد يتصبب عرقا، ينابيع من العرق تنحدر من كل مرتفع، لتصب في كل منخفض.

ألقي بهذا الجسد على السرير كشجرة عظيمة سقطت في نهر بعدما قطعت..

صورة جوية للسرير توحي بجزيرة تتوسط المحيط..

جزيرة لحم ذات رمل أصفر يميل إلى البياض، كثيرة الخلجان..

في الأعلى بركانان يتصببان عرقا، في يوم ما سيصبحان منزلا يتقطران لعابا..

مصبهـا عنق لا ينصح بتجاوزها لانزلاق عند الشـفتين و اغروراق البحيرتين، و تناثر شعر خروبي قصير على سطح السرير..

في لحظة عري، تعرف تماما كم نحن سواسية في الحب أمام الفقدان..
و في لحظة عري تسمح لقمر واحد في أخذ صورة حصرية لك..
كم من الرجال الذين أبحروا لاستكشاف هذه الجزيرة؟
و كم من الرجال الذين لم يبحروا بعد؟
من سيطأ شواطئها و يعكر صفو حبات رملها؟
من الأجدر بفضّ عذريتها، و يملأ فراغ أحشائها بنينا؟
أريد رجلا ترمي به الأقدار عند عتبة بيتي، ليكتشفني..
.. ببوصلة الحب..
.. من دون مرشد و لا إعلان في صفحات الرسائل..
...
...

لن يأتي هذا الرجل ما دام لن ينجح في اختباراتي.
سيأتي إن تخليت عن حماقات قلبي البيروقراطية.
استدعائي للرجال و تبني حبهم مخالف لقانون العشق العالمي.
ما الحب و الزواج و المستقبل إلا حبـة بطيخ لا تعلم صلاحها حتى تقسمها، وقتها لا ينفع إرجاعها للبائع..
فلماذا أحاول انتقاء الرجال عكس الفطرة؟
و لماذا أحاول أن أجعل ظاهر البطيخ أحمر و باطنه أخضر؟
ربما...
ربما سأظل أقتات على فتات الدعاية التي أتقنها..
.. إلى نهاية المنتوج..
.. أو عند انتهاء الصلاحية.

في صباح يوم - ليس كتلك الأيام التي ألفتها - من التقويم الجديد، استيقظت على اكتشاف جديد (شكرا لك يا من جعل مني صاحبة نظريات، شكرا ألف شكر.. يا أستاذي)..

نظريتي تلخص في ثلاث نقاط:

تأكدت أن للتقويم الميلادي توحيدا للناس في غير طبائعهم.

و للتقويم الهجري اختلافا للناس في معتقداتهم.

و التقويم ككل، له دراية تامة و مطلقة على أحوال الناس، العاطفية منها على الخصوص.

نظريتي هذه أملك براءة اختراعها رغم أنه هناك من سبقني بنظرية تشبهها إلى حد ما، إنها لشخصية معروفة (هي نفسها شخصية «المهماه»)، نظريته خلاصة تجربة قام بها على قط، قطع رجله الأولى ثم أمره بالقفز فقفز القط، ثم أتبعها بالثانية فالثالثة فقفز، و لما قطع له الرابعة لم يقفز القط.

استنتج صاحبنا: أن القط يفقد حاسة السمع عند قطع أرجله الأربعة.

شرح النظرية -وليست النكتة-:

التقويم الثاني و ضع لغاية الأول.

لكننا نتفق في أعياد الميلاد و رأس السنة الميلادية و كذبة أفريل..

و نختلف في عاشوراء منا من يجعلها ذكرى نجاة سيدنا موسى من فرعون و منا من يجعلها ذكرى لاستشهاد سيدنا الحسين.

و رمضان كل يصوم على شاكلته لم يتوحد المسلمون حتى في بدايته أو نهايته.

والمولد النبوي منهم من يقدّس و منهم من يبدّع..

ولو لم يكن التأريخ يعلم بنشراتنا الشخصية لما تمددت أيام الاكفهرار وتقلصت أيام الانفراج.

وما يثبت صحة نظريتي أنه عندما نكون تعساء يبطئ التقويم و تمر الثواني ساعات، و عندما نكون سعداء يسرع التقويم و تتعاقب الفصول كتعاقب الليل و النهار.

لابد لي من طريقة أوصل بها الموعد إلى الحبيب دون أن يعرف الزمن، فبمجرد الاتفاق على وقت معين حتى و لو كان من ساعة إلى ساعة يحولها الزمن إلى أعوام.

و ينتقم منا أشد الانتقام عند نهاية الموعد الأول.. فما أصبرنا على التالي؟

انتهت إجازة أبي و أمي بسرعة (لا لشيء إلا لأن التقويم حسدني على مواعدة قمري)، عقب المكالمة الإنذار التي أبلغتني فيها أمي بقدومهما انطلقت فورا إلى أشغال الترقيع، من تنظيف شامل للبيت و توضيب كامل للغرف، خصوصا غرفتي لأمحي منها آثار جرائمي التي ارتكبتها في حق الهاتف، أسطوانات الأغاني، و دفاتري..

كنت لأتصل بأحد رؤساء البلديات لينفعني بخبراته الترقيعية التي اكتسبوها عند كل زيارة مسؤول.

عند وصولهما كنت أنا و أختي و أخواي و طبعا خالتي في استقبالهما.

مرت الساعة الأولى بردا و سلاما و تطمينات فأبي كان (مضيف روحو) اقتصرت أسئلته على حالتنا الصحية و المادية و.. الدراسية.

استجوابه بدأ بخالتي، لينتهي عندي.

خالتي اكتفت بجواب واحد «الحمد لله» ونسخته على كل أسئلة أبي.

أما أنا لم أسلم من توبيخاته في كل المجالات، لامني على سياسة التقشف التي انتهجتها، الدراسة التي أهملتها، خالتي و أختي و أخويَّ الذين جوعتهم،...

اقترحت عليه حلا سعيا مني لتلطيف الجو بقولي: لا تقلق، غرامات

فقط من «الحلبة» كفيلة لتسمينهم كالدجاج و كأن شيئا لم يكن، لكن جوابه كان (سامط يرهج، لأنها انتهت الضيافة).

لم أنتظر وقت توزيع الهدايا، أعلم أني صاحبة أرخص هدية - إن وجدت -، ذهبت مباشرة إلى النوم مسلمة سمعي إلى الإذاعات المقرفة.

في الغد (تفرقنا قطوط على الحيوط) أخواي إلى عملهما، أختي إلى بيتها، و خالتي التي ألفتها و لم أقو على مفارقتها، ذهب أبي لإيصالها..

الوحدة ليست أن تعيش منفردا، الوحدة عندما يفارقك من ألفته حتى و أنت بين ظهراني جيش من البشر.

أمور كهذه لا مفر منها سوى النسيان، يجب عليك أن تنسى أو تتعلم كيف تنسى دون أن تفكر في أن النسيان آلية لا إرادية.

كشف العلم مؤخرا أن الإنسان لا ينسى، و إنما من كثرة الأحداث تكون لديه خزائن طويلة عريضة من الأرشيف، و عندما تصعب أو نفشل في التنقيب عن ذاكرة ما، نسمي ذلك نسيانا.

إن أردت ألا أقول لك انس أقول لك بالمفهوم العلمي الدقيق «اِطوِ الصفحة».

هناك بيت شعري جميل من قصيدة الأطلال الرائعة، لا أدري لمن أنسب روعتها، لإبراهيم ناجي أم لأم كلثوم؟ على كل حال أقسم لهما الثناء: روعة النظم للشاعر وروعة الأداء للمؤدية:

فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو

و تمحي بالأضداد،.. للتأكيد..

إن أغنية ذكرتك بشيء ما فحاربها بقراءة كتاب.

و إن ذكرك مكان بموعد ما فحاربه بمغادرته.

و لأحارب المنزل ذهبت إلى المحل، فأين ذلك المنزل الذي كنت

أسرح فيه و أمرح و أرقص و أواعد فيه الحبيب عبر الهاتف؟ أين خالتي وهدوؤها و(نيتها الخاثرة)؟

لما دخلت المحل وجدته في أبهى مظهر، نجيم ألف الخراب و لكي لا يتذكر حارب المحل بتغيير المظهر، نجيم لم تكن تزعجه غياباتي، و كان سريعا في تقبل اعتذاراتي، خيّرته بين أن يخصم من راتبي أو أخلفه ما شاء من الأيام في تسيير المحل.

خرج نجيم تاركا لي فسحة من الصمت، فرصة لاجترار الذكرى واسترداد شهوة اللذة.. و شهوة الألم.

أغنية تنتهي لتبدأ أخرى وأنا أغوص في بحر من الشرود.

وفي لحظة إغفاء، سقطت المفاتيح من يدي، التقطتها و انطلقت بها نحو الباب، شوقي يناديني لأطلب الحبيب من جاري الهاتف العمومي.

استدرت لأغلق الباب،.. فاجأني بقوله:

- أظن أن الوقت غير مناسب للزيارة؟

سقطت المفاتيح مرة ثانية لكن في لحظة لقاء، غمرتني الفرحة لرؤيته من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ، صرخت في وجهه و أنا أضغط على أسناني:

- هذا أنتَ يا مصيبة؟ كنت سأطلبك من الهاتف.

مد يده منحنيا ليلتقط المفاتيح و هو يقول:

- للحب WIFI خاص به، رسائل بسرعة البرق تخبرك كم الطرف الآخر بحاجة إليك؟

دخلنا المحل مع بعضنا، أمسك بيدي، و يده الأخرى تغلق الباب من خلفه، تلاطم قلبي بتلاطم الأجراس المعلقة فوق الباب، و لأُكذب تعابير وجهي رحت أستطرد في الكلام،.. أي كلام:

- هل من خدمة؟

- أوقفي تلك الموسيقى أولا، لأني أصبحت أغار من صاحبها.

- قلت لك مرارا أنك لست كبقية الناس، و أن لكل مكانه في قلبي.

سحبت يدي من قبضته بحجة إيقاف الموسيقى و احتميت بالمكتب الطويل، بقي واقفا رغم أني عرضت عليه الجلوس، تأمل النظارات المصفوفة على الرفوف مطولا ثم أخرج من جيبه نظارة و هو يقول دون أن ينظر إلي:

- كنت سأتحجج بإصلاح نظارتي في حال وجود صاحب المحل، لكن ما دمت وجدتك لوحدك سأتركها لفرصة أخرى.

أرجعها إلى جيب سترته الداخلي، ثم أشار بيده إلى نظارة طالبا مني إخراجها ليجربها.

خرجت من عريني منقادة إلى فخه، استدرت لأفتح الرف الزجاجي، و إذ بقبضته تحاصرني و المرآة من أمامي تحاصرني.

ضمّني إليه حد الالتحام، و أنفاسه تصول رقبتي و تجول دون أن يقبلني.

كان يقبلني بأنفاسه.

أدارني في جزء من الثانية، شدّد الضغط على خاصري، مجبرا إياي معاملته بالمثل، واصل مسحه التنفسي على الجهة الأمامية لعنقي و كأنه يبحث عن عظمة بداخله، استقر به المطاف عند فمي.

لم يقبلني،.. بين فمه وفمي قدر أنملة..

فلسفة جديدة في الحب.

تفطنت أني أخاصره من تحت سترته، وتمكنت يدي من الوصول إلى جيبه الداخلي لأختطف منه النظارة.

أطلق سراحي.
قام بعملية سطو غرامي دون ترك آثار، و في أقصر وقت متاح.
تأملت تلك النظارة الفخمة المقطوعة الذراع، و نفس السؤال يراودني من أين له هذه و هو بطّال؟
انتزعها من يدي طالبا مني عدم إصلاحها لأترك له ذريعة سبب الزيارات المقبلة.
همّ بالانصراف غير مكترث لإلحاحي عليه بالبقاء.
بانصرافه يريد أن يبقى عزيزا.
يعلم أن مآله مآل اللوز إن أطال البقاء.
صدقت يا إمام الحكمة و البلاغة: من أشرف أعمال الكريم، غفلته عما يعلم.
بمجرد خروجه اشتقت إليه.
تمنيته سلعة أشتريها.
أو دمية أقتنيها، أحضنها، و أشركها سريري.
إنه الرجل الماء، أهون موجود، وأعز مفقود.
حتى الـ(ماء) الرجل، أهون موجود، و أعز مفقود.
و اسألوا الأرامل والمطلقات إن كنتم لا تعلمون.

نجيم ليس كخالتي، رغم انعدام الأدلة و آثار الجريمة إلا أن حاسة الشم لديه متطورة، تنافس سمكة القرش التي تستطيع شم قطرة دم على بعد أميال.

يتجه نحوي بعينين مستذئبتين و هو يقول:
- ألن تغادري لتناول الغداء؟ أم أنك حقا تريدين تعويض الأيام التي غبتِ فيها عنا.. أقصد عن المحل؟

- إن كنت سأغادر فلن تتجاوز فترة غيابي الربع ساعة، أتناول الغداء فقط ثم أعود لمواصلة الدوام.

يستطرد بسؤال هو الآخر مستذئب:

- وجهك أصفر، لماذا؟

- و هل رأيت من قبل وجوها زرقاء؟

يقول لي مازحا و هو يتفحص وجهه في المرآة:

- أنا أرى وجهي بنيّا..

ثم يتحول مزاحه إلى صراخ:

- هذا الرّف مفتوح.

أجيبه بهدوء ليهدئ من روعه:

- نسيته أنا عندما أرجعت نظارة.

- إذن زارك زبون؟ و هذا الزبون رجل.

- و كيف عرفت؟

- أنا رجل، أشم رائحة الرجال.

أقوم من مجلسي و خيوط الدهشة تلفني:

- و ماذا لو قلت لك إن حاسة شمك قد خانتك، لأن امرأة زارتني؟

يجيب بسخرية و كأنه تمكن مني:

- لا أملك حاسة شم أصلا، و إنما هذه النظارة خاصة بالرجال، هذا كل شيء.

حملت حقيبة يدي و همست بالانصراف و أنا أوصيه مستهزئة:

- انتظرني لا تغلق المحل، وجبة خفيفة و أرجع.

لا زلت لم أشف من مرضي، أكشف نفسي من دون قصد، لو كان متحرٍّ يستجوبني، أكيد أني سأفرغ له كل ما في فؤادي..

نصيحة لذوي الشأن العام: لو احتلت الجزائر فاعلموا أني أنا السبب، و لا تلوموني.

صدقت يا ابن خلدون عندما قلت إن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب.

نتعلم من أخطائنا.

ليس العيب في أن نخطئ، لكن العيب أن نتمادى الوقوع في الخطأ نفسه، و نخرج حينها من دائرة الإيمان.

من يومها أصبحت أنتظر الكلام حتى النهاية، أفهم ثم أحكم وأقرر.

غيرت مكابح حماقتي وتسرعي.

في اليابان سبب سماع الناس بعضهم لبعض يكمن في لغتهم، للّغة اليابانية أمر عجيب، التأخير في خبر الكلام مطلق و ليس كما هو الحال في اللغة العربية يستعمل لأغراض بيانية، فمثلا لما يمنع عليك متجر أو حديقة من تصرف ما، يقال لك باليابانية: لعب الكرة، اصطحاب الكلاب، تناول البوضة في هذه الحديقة.. ممنوع.

لذلك تجد الياباني لا يقاطع غيره في الكلام، فهو مرغم على الإنصات لك حتى آخر كلمة..

من الآن يجب علي أن أتعلم كيف أصبح يابانية، بشرط: دون تضييق العينين، فرجالنا يحبون العيون الفناجين.

•••

صباح، صباح، صباح.
كلمة واحدة لثلاثة معاني:
اسم رجالي.. صباح فخري.
اسم نسائي.. صباح الشحرورة.
و وقت مواعيدي.

علمني حبه أن استيقظ باكرا.
جعلني لا أرغب في تناول الفطور في البيت.

أرغمني على شرب الشاي.
أحبني بالصباح، و أحبني بالليل..
أحبني بالصيف (و عذرا يا فيروز على الشتاء).

زيارته لي في المحل شبه يومية، حتى أنه ذات صباح تأخر عن المجيء كدت أذهب إلى بيته لأنظر سبب غيابه لولا أني صادفته في الطريق مبررا تأخره بالاستحمام.

جعلنا من الصباح لقاء الأوجه و كلام العيون.
و جعلنا من الليل لقاء الأنفس و كلام الألسن قبل النوم.

في المحل تعلمنا كثيرا من السخافات، أجبرنا الموقف على استعمال لغة اللسان، لكن الليل بعيد و الهدف بلغة العيون صعب المنال، اهتدينا إلى فكرة سخيفة (انترنت بدائية)، وضعنا بيننا دفترا و في يد كل منا قلما.

يدوّن كل طرف ما يريده من الآخر ما عجز عن قوله باللسان و يدفع بالدفتر ليجيب عنه الثاني، و عندما ينتهي يرجعه إلى الأول و هكذا..

أما أنا فأسخف شيء فكرت فيه عندما أريد أن أرسل له رسالة بالبريد الزاجل (ابنة أخته) - أخته المطلقة اسمها مذكور في موسوعة غينيس كونها مطلقة عدة مرات - التي كانت تترد عندي، مرة لتبحث عن خالها و مرة لإصلاح نظارة جدتها بالمجان.

كنت أشتري لها كوبين من المثلجات: واحد لها و الآخر تأخذه مباشرة إلى خالها.

لما يتناول المثلجات، يجد بداخل الكوب كيسا بلاستيكيا صغيرا يغلف الرسالة..

من منا يستطيع نسيان تلك اللحظات التي كنا نعيشها على صينية الغداء التي كانت تبعثها أمي من يوم لآخر، لم يكن يشاركني كل طعامي

لربما أن والدته كانت تحذره من أكل طعام الغير خصوصا إن كان من عند امرأة.

أمه تذكرني بعجوز كانت تسكن بجوارنا لما كنا في الحارة القديمة التي غادرناها بحكم عمل أبي، تلك العجوز يستغرب كثير من الناس سبب ورود اسمها عند كل قرعة حج و في كل لائحة عمرة.

هي نفسها لم تعد تذكر كم حجة حجت، و كم عمرة اعتمرت.

أما أنا لم أستغرب هذا الأمر كونها أرملة شهيد (و نحن أولاد حركى)، و إنما لماذا هي محتاجة إلى هذا الكم الهائل من الحجات و العمرات؟

الجواب الكافي أتاني من مصدر رسمي، هذا المصدر الذي يدعى «صرهودة» كانت أمي تحتكر حقوق بثه.

تقرير صرهودة يقول:

تأخر زواج ابنة هذه العجوز فعملت لها (القري قري) واستعانت برفقاء شمهروش الطيار ليسرعوا بتسويقها، و بالفعل تزوجت ابنتها.

هذه المصادفات هي التي تجعل القواعد من العجائز يؤمنون بهذه التصرفات الباطلة.

و لكي تدفع ثمن خطيئتها لا بد لها من (غسل عظامها).

المسكينة العروس (لما جاءت تفرح، مالقاولهاش مطرح) تزوجت ولم تنجب، و يجب على أمها أن تعود إلى أعوانها، فأنجبت و بعدها حجت.

أنا من رأيي، كان عليها أن تزوج ابنتها و تنجّبها ثم تساعد كنتها على الإنجاب ثم تفتح عيادة لعلاج العقم و وكالة لتصدير العوانس، تجمع مالا ضخما لتحج دفعة واحدة. (ضربة بالفأس، خير من عشرة بالقادوم).

الله يرحم تلك الأيام...

إن لم تسعنا رحابة المحل، نلقي بمواعيدنا إلى خارجه ليحتضنها الحقل، هناك في الحقل بصرت عن كثب على كوخ قديم يريد أن ينهار، اقترحت عليه فكرة إقامته فلم يعارض، كنت العقل المدبر و هو العضل

المنفـذ، لم نكـن بحاجة إلى ذلك الكوخ، فالسـنابل وحدهـا كانت تطول الأعناق.

في يـوم من الأيـام، و مازلت أحـن إليها حتى اليـوم تلك المصارعة التـي كنا نهواهـا، أذكر أنه كان يصارعني في ذلك الحقـل لأنه يعلم يقينا أنه سيسقطني و يطرحني أرضا، معه لم أكن أخشى الثعابين و الحشرات التي طالما حرمتني من ولوج أماكن معشوشبة كهذه.

معه أحس بالأمان و معه فقط لم أكن أشعر بالقرف من لعابه، رائحته، لحس جسمه، و أنا التي تمتنع عن الأكل في الولائم من القرف.

في ذلـك اليوم سـمح لي بالفوز عليه، تركني أسـقطه أرضا، و بجيلة منه اتبعني فوقه.

ما أجمل أن أرمي بثقلي ليحتضنه رجل.

وزني وقتئذ صفر و حبي قناطير تبلغ عنان السماء.

مـاذا أنـا فاعلة بك الآن؟ (أهمـس له في أذنه بالرغـم من عدم وجود لا بشر و لا طائر)، يا عمري الكلب أريد قتلك، أن أتفنن في قتلك،..

من شدة الحب تجيز كل المحضورات على حبيبك..

و كل الأوصاف التي كنت تعتقد في يوم ما أنها مهينة، تصبح الأنسب للتعبير عن قمة نشوتك:

قل لي فقط ماذا أصنع بك؟ (أكرر بنفس درجة الصوت)

اسـتجمعت جميع قواي في يديّ و صوبتهما نحو عنقه، أضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة لأخنقه.

يدافع عن نفسه ليتمكن من الوقوف، ومن شدة ضحكه و ثقل وزني ينهار في كل محاولة.

وفي غفلة مني أصبح الذي كان بالأعلى في الأسفل، وأصبحت يداي اللتان كانتا تريدان خنقه، بعنقه معلقتين..

وقـف وحملني معه، بدأ يسـير وكل ما اسـتطعت رؤيته زرقة السـماء واخضرار خط الأفق ووجهه الضاحك..

توقف عن المشي، سرقت نظرة لنجد أننا نقف أمام الكوخ، أنزلني، فتح الباب على مصراعيه، وفسح لي المجال بالدخول أولا.

وبخطى ثابتة هادئة وكأني ألج مغارة علي بابا تقدمت إلى وسط المكان، وبعد مسحة ضوئية كاشفة شاملة استدرت إليه وعلامات الدهشة بادية على وجهي، سألته بلغة العيون عن كيف و متى حصل هذا؟، ليجيبني بهزة كتف و ابتسامة عريضة معناها باللّغة العربية: مفاجأة لك.

لحقني بعدما أغلق الباب خلفه، لم يتوقف عندي كما توقعت بل واصل مشيه إلى غاية زاوية بها فراش، جلس و هو ينظر إلي، لم أبرح مكاني غير أن نظراتي كانت تتبعه خطوة بخطوة مكتفية بالصمت.

عندما لا يجد المرء ما يفعله أو يقوله، فالصمت أنجع حل.

نظري هذه المرة يخبرني بأنه تلقى إشارة من ذاك الشخص في الزاوية يدعوني إليه.

دنوت منه بخطوات قصيرة مترددة كالطفل الصغير عندما يدعوه شخص غريب عنه إلى شيء ما، مد يده إلي، وكالطفل الصغير أجلسني في حجره.

تعطلت الساعات، وتوقف الزمن، حذفت كل الأبعاد وحذف العالم.

العالم كله الآن كوخ و شخصان..

و من دون مقدمات و لا تسخينات و فور انطلاق صافرة الحكم.. قبلني، و من هول الصدمة أغمي عليّ مجددا.. كما يحدث لمشجعي فريق عندما يصدمون بهدف من الخصم في أول دقيقة من المباراة..

لم أستفق إلا بعد استنشاق عطر صبه على ظهر يده (و أنا مغمى علي إلا أني تمكنت من معرفة نوع العطر الذي يستعمله، هذا العطر ليس

كالنظارة) أسند ظهري للجدار و هو يقول:

- هل أنت بخير الآن؟

- سامحني لقد سببت لك الهلع.

- لا شيء يجبرك على الاعتذار، لا تؤاخذيني على كلامي، لكنك ضعيفة.

- حبنا لا يزال في المهد.

- و ما الذي يجبرنا على الإسراع؟

الكوخ كوخنا، و الحب حبنا، يتربى على مهله في حجرنا، و ينمو بين أحضاننا، و يتغذى من رحيق شفتينا..

- على ذكرك للكوخ، متى قمت بهذه الترتيبات؟

- كنت كلما خرجت من عندك من المحل أتوجه مباشرة نحوه، مرة للترميم، ومرة للتنظيف، ومرة أخرى للتأثيث، وهذا لا يمنع من أن تكفي عن التفكير في أمكنة أخرى، فالكوخ مجرد عاصمة ومؤقتة لا تتحمل جميع الفصول.

- حبيبي أنا مضطرة لأغادر، و موعدنا غدا نفس المكان و نفس الزمان.

- غدا سأضطر لعدم رؤيتك، استدعينا البنائين لبناء الطابق الأول في مسكننا، لكن سأحاول لآتي إليك، هذه المرة انتظريني على رصيف الطريق المحاذية للجبل حوالي الساعة الرابعة عصرا، أما الآن فتعالي معي لأوصلك منتصف الطريق.

لم أمانع، أولا بسبب الإرهاق وطول الطريق، وثانيا لأني ألفته وأصبح أكثر من مجرد صديق (حبيب)، وثالثا لأن كل عين ولمان رأته مقيما عندي بالمحل، ماذا بقي لأخفيه؟

* * *

اليوم الموالي كان كعثرة في مسيرة علاقتنا أو نقطة سوداء في صفحة حبنا، بسبب دلالي المفرط و سوء فهمه.

لما أنهى البناؤون عملهم ووصل موعد اللقاء، جاءني ووجدني حيثما أوصاني، توقف عندي، ركبت إلى جانبه ثم انطلق، ثمانون بالمائة من الوقت قضيناه في صمت، فهمت القصد من وراء طوافه بعمارة أنه يريد أن يصطحبني إلى شقة بها يملكها أحد أقاربه، لكني ما نطقت ببنت شفة حتى يطلب مني، هو الآخر لم يجرؤ على الحديث ربما لخجله، أو أنه خشي عدم موافقتي على فكرته، ومن كثرة الطواف والحومان سئمت وطلبت منه ركن السيارة، لم يعارض ولم يسأل حتى لماذا، بدأت أختفي عن أنظاره لكنه لم يلحق بي مما زاد في درجة غلياني..

وصلت البيت و الدموع لا تبرح عيني.. أهكذا فقط يتخلى عني؟

لم أطق غرفتي، و لم يحوني سريري، داء الكلب (حاشا السامعين) أصابني، أو إدماني عليه يحرضني..

لا أظن نفسي أني قد قمت بأجرأ تصرف في حياتي عندما اتجهت صوب منزله، لم أصدق شجاعتي و إقدامي على طرق بابه، خرج أبوه و هو شيخ كبير، يعرفني لكنه قطب حاجبيه لسبب مجيئي، لما بادرت أشرح له الوضع سطع قمري من ورائه، ربما لأنه سمع كلامي أو لأن بوصلة الحب أشارت له بمجيئي.

تأبط ذراعي و ذهب بي إلى زاوية غير بعيدة عن المنزل، صرخ في وجهي و قبضته لازالت تؤلم ذراعي:

- واش بيك يا المهبولة؟

- جنوني ليس بجديد عليك.

لبس نظارته الفاخرة و واصل صراخه:

- و الله العظيم ما فهمتك؟ كنت معي هادئة صامتة و بعدها أرى حبي يغادرني من دون سبب حتى اختفى عن أنظاري، سمحت لك بالنزول ظنا مني أنك تريدين إقتناء بعض الأشياء، و لأصارحك كنت

أنوي أخذك معي إلى شقة قريبي فضلتها على الكوخ لأتمكن من أخذ حمام، تعلمين أنني منتن بالعرق، مغبر من الرمل..

لمحت دموعا تنزل باستحياء من وراء عتمة نظارته التي ارتداها لتخفي دموعه، سارعت بخلعها لأمسح الدموع لكنه اختطفها مني وبقبضة يده جعلها رميما.

صرخت في وجهه:

- لماذا فعلت هذا؟

و بنبرة أخف أردفت:

- سامحني أرجوك، والله إني أعدك أن أتخلى عن كل هذا الدلال المفرط.

لتعلو صرخة أشد من السابقة:

- نحبك يا حلّوف، نحبك..

- سأحضنك و لن أخشى أحدا، لا يهمني حتى و لو رآنا كل الملأ.

بعدها فقط استطعت الرجوع إلى البيت، لن يشتمني سريري، و لن تغضب مني غرفتي، ليلتها لم أقدر أن أتخيل كيف كانت ستمر تلك الليلة علي و نحن متخاصمان..

بقيت أصبر نفسي بمقولة ظللت أرددها مرارا: «الحب بلا مشاكل ماشي حب»، قياسا على مقولة: «البلاد بلا مشاكل ماشي بلاد»، (هذه المقولة تنسب حسب الرواة إلى الشخص نفسه صاحب نظرية القط.. والمهماه).

قبل أن يحلك ظلام الليل بقليل، انهمر الطوفان على غرفتي مخبرا إياي بأن طفلة صغيرة تطلبني، لما نزلت وجدتها ابنة أخته، أعطتني كيسا

و قالت لي أنه مرسـول من طرف خالها، تناولته من يدها و في طريقي إلى الغرفة فتحته، وجدت به زجاجة عطر (العطر نفسـه الذي أيقظني به في الكـوخ) لم يكن العطر من النوع الفاخر، أربكني هذا الرجل بتناقضاته: سـيارة و لباسـه و مطعمه متواضع، هاتف محمـول و بطال، وحيد أبويه تقريبا ينام على الأرض، و الآن نظارة فاخرة و عطر رخيص...

و إلى جانب الزجاجة رسـالة قصيرة فهو لم يشـف حتى الآن من داء اقتضاب الكلام:

«أعلم أن هذا العطر لا يناسبك لكن استعمليه لمجرد الذكرى..

يتوقف قلبي.

.. وردني اتصال أني مطلوب للعمل في إحدى ولايات الجنوب..

يواصل قلبي.

.. الانطـلاق يكون غدا عنـد الفجر، إن لم تكتـف بي كمجرد رائحة فسـأترك لـك الكلام، معك أم كلثـوم.. مزقي صفحـة اختلافنا اليوم.. أحبك، أفديك بسلخ جلدي و طمس عيوني..»

التوقيع: ختم على شكل قبلة.

من: H.H.S إلى: S

.(H2S2)

وضعـت الرسـالة بجانبـي و راجعـت الكيـس وجدت به أسـطونة لأغنية يتيمة من أغاني أم كلثوم.

أذكر أني يومها فقط سـمعت أم كلثوم لأول مرة و لم تكن من بعدها فرصة ثانية، تجنبا للذكرى..

و لم أذكـر حتـى عنوانها المهم أنها كانت تحوم حول الوداع، من يومها بدأ التشاؤم (لا ربح و لا رأس مال).

منـذ ذهابـه إلى الجنـوب لم أره إلا أيـام الثالـث عـشر و الرابـع عشر والخامس عشر من الشـهر الهجري، و لم أكن أسمعه إلا في الهاتف الذي

هجرناه منذ أمد بعيد، و لم أعد أشمه إلا في ذلك العطر الرخيص.

كلما اتصل بي وأشكو شوقي إليه وأخبره بأني لم أعد أطيق غيابه عني، يقول لي أنه هناك من يستطيع جمعنا إن نظرت إلى القمر فسيكون خير وسيط بيننا و خير سفير.

ادّخري كل حنينك و حبك على ورق عندها ستتاح لي فرصة تقييمك إن كنت حقا كاتبة فاشلة كما يزعمون، و لنؤسس قواعد لغة جديدة بالإضافة إلى لغة اللسان و العينين، لغة القلم و ما تسطرين..

بالرغم من أني كل ليلة قبل أن أخلد للنوم أكتب عنه شيئا، مرة شعرا و مرة خاطرة، إلا أني لم أعد أذكر سوى مقتطفا قلت فيه: «علاش يا ورقلة، ماكفاكش الغزلان اللي فيك تزيدي تديلي غزالي، آه يا بلاد الدقلة شدي في رملك وخلي حبيبي توالي...».

وهذا لسبب واحد هو أن كل تلك الخربشات لم تعد بحوزتي..

بقيت صامدة على وجع القلب حتى عاد، انتظاري له لم يكن كانتظار بنلوب لزوجها أوليسيز حسب إلياذة هوميروس في الكم، لكن فاقه من حيث الكيف..

بمجرد دخوله المدينة، بدأ بوعائي قبل وعاء أمه.

أرادني أن أكون أول من يلقاه وأول من يطمئن عليه.

دخل علي في المحل على حين غفلة، كل المرايا كادت تشقق من هول رؤيته، أسرعت مباشرة إلى احتضانه و إشباع نهمي بشمه..

خاطبني مهدئا من لهفتي:

- دعيني استحم ثم كوليني من بعد.

و أضاف:

- سأذهب لأغير ثيابي واطمئن على أمي وأبي، وأعدك أني سأعود.

- لا، خذ قسطا من الراحة، إذا تحملت غيابك عدة أسابيع ألا استطيع تحمله ساعات؟

- إذن سأطلبك ليلا في الهاتف.

قبلته على الشفاه مودعة،.. آسفة لم يعد للخدين و لا للجبين نصيب.

انتزعت حقيبة يدي من المكتب، أغلقت المحل و ذهبت إلى محل آخر للعطور الفاخرة لم أكلف نفسي مشقة التجربة و الاختيار لأني مصممة منذ انطلاقي على عطر واحد «شانيل بلاتينيوم»، و في طريق العودة تفاجأ صاحب محل آخر عندما ابتعت منه علبة سجائر فخمة.

صرفت تقريبا كل مدخراتي و عدت إلى العرين الذي أعتكده.

أخفيت مقتنياتي في درج المكتب على أن أقدمها له في الغد عندما يأتي، كهدية بمناسبة عودته من بعد غياب طويل، و لأني أريده أن يتذوق طعم الحياة، يدخل مصطلحات جديدة إلى قاموسه، أريده أن يعيش..

لكن المجنون فاجأني بعودته كما قال و ليس كما اتفقنا، حب جنوني فكيف لا يكون طرفاه مجنونين.

دخل المحل بهدوء، تمثل لي رجلا محلقا ذقنه يلبس طقما رياضيا أسود..

رهيب، رهيب،.. رهيب و الله رهيب..

صحت في وجهه و فمي يأبى الانسداد من شدة الفرحة، الدهشة والإعجاب:

- آما على المهبول جا، كم أنت وسيم؟ راك باغيني اليوم ناكلك؟ تعال، تعال، اجلس هنا.

أدخلته المقصورة و انطلقت فورا لأغلق الباب.

تلحقني صيحاته من ورائي:

- يا مجنونة ماذا تفعلين؟ ماذا لو جاء نجيم أو صاحب المحل؟

أجيبه و لعابي يسيل من بين أنيابي كالمسعورة:

- في حضرة الحب وفي حضرتك وخصوصا بعد كل هذا الغياب، وحضرة إغراءات وسامتك لا فرق بين العقل و الجنون.

ارتميت في أحضانه، و أنا لا أدري بأني أخلق مكانا للذكرى، معلما لن يمحى.

كاد يبتلع لساني، و كدت أمزق شفتيه بأسناني.

كاد يسقطني أرضا، وكدت أمزق ثيابه إربا.

وقت مستقطع،.. وقفنا لنمسح العرق.

يخلع عني مجوهراتي و هو يحذر:

- أخشى عليك هذه المرة من الموت و ليس الإغماء.

- لا تخشى شيئا و لا تهتم، يداي تجرأتا و فاهي قبّل.

يشير الحكم إلى بداية الجولة الثانية..

هذه المرة بالتصوير البطيء، لإنقاص كمية العرق المتهاطل و لقضم الحب على مهل.

فتحت سترته الرياضية لينكشف لي عنق و ذراعان قويتان يتوسطهما قميص داخلي أبيض مفصل لتقاسيم الجسم بوضوح، رغم وضاحة الصورة إلا أن نفسي تريدها HD عالية الجودة، صدر عريض و بطن مشدودة من دون حبات الدومينو و خصر يميل إلى الضيق، و الكل مفروش بشعر ناعم متشابك تحب أن تسميه بعض الغبيات بـ Tapis de l'amour فليكن بساطا للحب بالرغم من أني اتخذته لي وسادة.

لم يبق من تقشيره إلا الجزء السفلي، وقت انشغالي بمسح جيولوجي لجزئه العلوي لم يتجرأ على إزاحة سنتمتر واحد من القماش على جسمه.

يحترم الحب.

يتقن اللعب.

كان على أهبة الاستعداد.

بإشارة مني رأيت سلاحه صاح.
سار الأمر بسهولة، طبعا فالسروال الخارجي من طقم رياضي سهل الانسدال، وغياب الداخلي ساهم بشكل كبير في مواصلة عملية التقشير.
اغتنمت فرصة أخذ صورة ضوئية تذكارية لأول رجل (عين فوارة).
و لما نظرت إلى مرآة كانت خلفه، أعطتني صورة لرجل تتقدمه العين الفوارة، (المسلوخة تضحك على المذبوحة).
نحن الآن متساوون أمام القانون.. عند عتبة الحب.
للحب جانب معنوي عاطفي وجانب مادي شهواني.
في كلا الجانبين نحيا، و في كلا الجانبين نموت.
بدأ التعب ينال منه، و بدأ الإغماء يزورني، اتخذت من حصير كان نجيم يستخدمه للاستلقاء فراشا لنا، تناوبنا على من تكون له الأرض ومن تكون له السماء.
وكلما جاء عليه الدور، تتعالى آهاته..
ظننتها تنبع من طول سفره، لكن بصوت خافت يكاد أن ينطفئ استفسرت عن سبب تأوهه ليكون جوابه أن هذه هي سكرات الاشتهاء..
(فحولته عجزت أمام شراستي).
يومها كنت في كامل لياقتي البدنية، تمرنت كثيرا لأتحاشى الإغماء..
أستطيع مواجهة رجل مدجج بالسلاح.

لكن اعتقاداتي ذهبت أدراج الرياح..
فمن قالت أنها تقوى على رجل.. فقد كذبت.
بالرغم من الأوقات المستقطعة، و بالرغم من نضحه لي بالماء على وجهي، إلا أن كابوس الإغماء ظل يطاردني.
لم آبه، واصلت المقاومة بكل جولاتها و أشواطها.
حتى إذا ما جاء الدور ليفترشني أرضا و يبقى هو في السماء..

.. شهقة واحدة و بعدها لم أعد أذكر شيئا.

فتحت عيني على مرآة السقف، لو لم أكن أعلم بوجودها لخيل لي أنها لوحة من لوحات الفن الباريسي فرت من متحف اللوفر الفرنسي.

جسدان (أسمر و أبيض) ميتان.

لا شيء يجرؤ على الحركة إلا العينان.

بقينا على ذلك النحو زهاء نصف الساعة أو يزيد، إلى أن استجمع قواه و نهض.

أيُّ طينة مصنوع منها الرجال؟

نطالب نحن الغبيات بالمساواة.

كيف نريد أن نتساوى ببشر يدخل معركة الجنس ضعيفا و يخرج منها منتصرا؟

لن أنضم إلى حزب الغبيات.

شجعني على النهوض فأبيت و أبت مفاصلي.

خوّفني بأنه سيذهب و يتركني وحدي على هذه الحالة، فاستجابت بعض عضلاتي، مددت يدي إليه ليساعدني، استلمها و ما إن استويت حتى جذبني حضنه إليه مجددا.

عدّل وجهي ليقابل وجهه و هو يحذر:

- هذا يكفي، ستموتين.

أنظر إليه و أنا أزاوج كلامي بابتسامة فاترة:

- حضنك يجذبني، كذب من قال أنه هناك حقل مغناطيسي في القطب الشمالي.

- يا ستي، يا عمري، يا غزالي، دعي قليلا للغد.

- بشرط: أن تترك لي قميصك ألبسه وسادتي، هكذا لتكون لي في الليل كما تكون لي بالنهار.

- موافق، المهم ساعديني لألبسك الثياب.

لم يكن ماهرا في إرجاع كل القطع إلى مكانها كما كان في التجريد.
نحن قوم نبرع في التجريد، نحن أكبر عامل من عوامل التعرية.
يتقن حتى خدمات ما بعد البيع.
صفف شعري، غسل و جفف وجهي، ألبسني مجوهراتي.
تحول بعدها إلى لباسه، في الأول ظنته نسي نفسه، لم أكن أريده أن يخفي جسده عني، لكن خشية أن تخطفه أخرى مني في الشارع وهو معي، سمحت له بلبس ثيابه.
استغربت ارتداءه للقميص، و في برهة تفكير تذكرت ما يتلقاه من أمه من تحذير، لا ألح على شيء لا يرغب فيه.
ناولني حقيبة يدي، ساعدني على غلق المحل، وأوصلني إلى غاية باب المنزل.
(même la livraison à domicile).

نجيم هذه المرة كان له دور حساس في مسلسل علاقتنا..
فاجأني في صباح الغد بأحجية جديدة ذات المنهجية القديمة نفسها:
يبادر بقوله المعتاد بشيء من التعديل:
- لا. اليوم فعلا وجهك مصفر.
قلت بابتسامة معلنة و تذمر مكنون:
- الله يصفر وجهك صباح ربي، علاش شميت اليوم ريحة الرجال ثاني؟
- لا لا، شميت ريحة الفراق.

أجبرت نفسي على أن تكون يابانية، بقيت أنتظر حتى نهاية الكلام، لكن نجيم لم يواصل الكلام بل دخل المقصورة و أخرج معه الحصير مخضّبا بالدماء.
توقف قلبي فعلا، و أدركت أني استنفدت جميع وحداتي.

ولو لم يتفوه بتلك السخافات لكنت في عداد الأموات:
- أنا ظنيتك انتحرتِ..

بمجرد سماعي لهذه الجملة بدأ منسوب الدم يرتفع بالتّدريج، والحركة تدبّ في أطراف بدني من جديد.

بدأت أبحث عن كلمات لأطرده بها خارج مجال الفهامة:

- هذا الحصير خاصتك، ما أدراني به؟ لكن لن يضيرني إن أخذته معي وغسلته لك.

يتوجه نحو الباب و هو يردد:

- لا تفكري في ارتكاب حماقات، فنحن نحتاجك و لا نقوى على فراقك.

نجيم بهذا الكم من السذاجة و التبهلل إلا أني اكتشفت بعد مضي سنين أن له حقا ملكة الشم، و أن المسكين لا طالما أرادني.

لا أقبل به، ليس تكبرا مني و إنما لأن صفحته بيضاء و صفحتي أنا مخضبة بالسّواد..

أما يومها بقيت في المحل أعيد الفيلم مرارا و تكرارا لأجيب في كل مرة عن أسئلة ألح عليها فكري، و الذي زادني إرباكا:

لماذا تحسس بطني لما زارني في اليوم الموالي و قال لي: أين ابني؟ سنعيده لا تقلقي..

لم أعر كلامه كل اهتمامي، لكنْ بعضه أوجس في نفسي خيفة جراء التصرف الذي قام به، أتراه كان يريدني أن أحبل له؟ أو يقصد أمرا ما أعجز عن تفسيره.

بقيت أتعايش مع هذا الهاجس، بل أعيش به حتى اصطدمت بجدار مكتوب عليه 07/ 06/ 09 أرقام لا يحب أن يراها كل من يشبهني.

التقيت به خارج المدينة غير بعيد عن الكوخ بموعد عقدناه الليلة الماضية، أراد من لقائنا أن يكون بعيدا عن الكوخ لكي لا ينجذب إلي

ويلهيني عن هذا اليوم.. يوم امتحان البكالوريا.
جاء كلامه كله نصائح و تحفيزات.
لا زلت أذكر وعده لي بأني لو نجحت في البكالوريا سيهديني هدية لن يقدمها لي سواه، وعدني بأن يحملني و يختطفني إلى مكان لن نرجع منه حتى انقضاء العطلة الصيفية.
اعتزلني طيلة الثلاثة أيام الامتحان، لم أكن أراه و لكنه كان يراني، أخبرني أنه كان يرافقني ذهابا و إيابا من المنزل إلى مركز الامتحان..
لم يشأ أن أفكر في شيء غير الامتحان فتجنب لقائي.

و جاء اليوم المشهود..
يوم النتائج..
وجوه يومئذ مسفرة لسعيها راضية، و وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة.
لا أظن أن هناك يوما أسود في حياتي كذلك اليوم.
أمسكني برفق من يدي و رافقني كجسد إلى حديقة عمومية يحاول مواساتي عبثا.
لا يعلم أن المصائب إن حلت بي تجعل صدري ضيقا حرجا يصعّد نحو السماء.
تكلم طيلة ثلاث ساعات لا أذكر من كلامه شيئا..
سوى إجاباتي التي تراوحت ما بين صمت و تنهد و دموع.
افترقنا على موعد ضربه لي أنه مصمم على أخذي إلى الشاطئ لينسيني مصيبتي و لعل البحر كفيل بابتلاع همومي.
ما رد عليه اللسان.. و لا حتى عيني.
احتجبت بالمنزل مضربة عن الكلام و الطعام.
ذهبت الأحلام و حلت محلها الأوهام و الآلام.
كل ما كان في وقت ما مسطرا..

في لحظة ما تبخر.
نظرت في المرآة، تفاجأت بوجود شخص آخر، نحيل و أصفر..
و لما خرجت وجدت العالم تغير و كأني نمت مدة ثلاثة أشهر.
أول من أردته أن يكون محدثي، هو.

طلبته من هاتف عمومي أسأله إن كانت دعوته لا زالت قائمة.
مرّ عليّ بسيارته و لسان حاله يقول أنه غير مهيإ لهذه الرحلة، كونها برمجت على أن تكون قبل ثلاثة أيام، لكن ما حسبه يفعل؟
ذلك اليوم جعلته يكتشف امرأة أخرى، امرأة لا تبقى تندب حظها، تُجوّع بطنها، و تطفئ بالدموع نور بصرها.

اليوم وغدا يا لمجد لا تزال آثار حضارتنا قائمة لما مرت من هناك.
اسأل المدينة التي كنا فيها، و ابحث عن شجرة وشمنا عليها اسمينا و وادٍ شهد شاطئه على حديثنا..
يجب أن تصنع من البصل تفاحا... ما من حل؟
عليّ تحمل المزيد من البصل، فالبصل في فصل الصيف وافر وثمنه زهيد.
وأنا في شهر جويلية بدأت أشم في كل طعامي و شرابي رائحة البصل.
عرفت أن الصيف تحامل علي منذ أن أهداني طبق البكالوريا (نتاع البصل).
تحمّل يا فمي،.. و بصحّتك يا بطني.. إن هذا الذي يلقى إليك تفاح.
ومن الآن لن تطعم إلا التفاح.. حتى التخمة.

أصبحت وجبتي مقتصرة على البصل يا لمجد، أقولها صمتا و إلا سمعني بطني.
بدأ ينخر جسمي الهزل، و جيبي يدق ناقوس الخطر و أنا به لا أبالي.

لا أبالي بجوع بطني و لا بإفلاس جيبي، و لا برائحة فمي.
كنت أقتات من قبلاته لتسدّ رمقي، و لعابه مطهّر لفمي.
و بين أحضانه كنت أنعم بأنعم فراش، و جسمه لي كان أدفأ معطف،..معطف في الصيف. صيف هو شتاء تقويمي.
أرجوك لا تكن مع الدّهر ضدي.
إن عضني الدّهر و فرّ، ابق معي مكرّا مفرا.
إن كانت كل الدنيا ضدي فلست أبالي ما دمتَ معي.
قناعتي بك، كنزي الذي لا يفنى.
أخرجت من حافظة نقودي ما تبقى من مدخراتي، ضربتني دهشة صرعتني، اتهمت النسيان بسرقتي لو لم تبرئه ذاكرتي.
تذكرت بأني صرفت جلّ مالي لشراء هدية لقمري، الهدية التي نسيتها في درج المكتب يوم الواقعة.
فربّ نسيان يلد لك ألف ذكرى.
انتظرت مدة أسبوع لأقبض أجرتي المقبلة، لكن القدر، و بالرغم من عثوري في حسابي على مبلغ محترم، إلا أنه دفع لي بصندوق بصل محترم.
سألت نجيم عن السبب، ليردّ لي بأن صاحب المحل باع الآلات والمحتويات لحاجته الملحة للمال.
حزنت و كأن المحل محلي، و رأيت الفقر يدق بابي و الترف الذي كنت فيه تتناثر أوراقه عند قدمي.
سأواصل أكل البصل، و أرقص..

فهل من مزيد؟

أخذت ذلك المبلغ الذي لا طعم له و اشتريت به هاتفا محمولا أُفرح به حبيبي ما دامت الفرحة تأبى طرق بابي.
زارني في المحل، لاحظ بمفرده الجو الكئيب الذي خيم فيه، تردّد في

الكلام ليرمي بعدها كلماته كيفما اتفق:

- لم أخرج لك هكذا، زوابع الغبار التي في الخارج شوشت زينتي.

لم أنهض لاستقباله كما عودته، بقيت ماكثة على الكرسي، يداي في جيب سترتي و عيناي مثبتتان على الأرض، بصوت كسول قلت له دون أن أنظر إليه:

- راني نشوف، اليوم راك حطّة؟ غير الخير؟

سكت مطولا حتى كدت أنسى وجوده، لولا أنه جلس على المكتب بجانبي و انطلق لسانه:

- عندي لك خبر جيد و آخر لا.

- في الحقيقة لن تكون ماهرا في المقايضة مثل أمي، لكني سأقايضك بما لدي، فأنا أيضا أملك لك خبرا جيدا و آخر سيئا، على أن تبدأ أنت الأول.

- لن أخيّركِ بأيهما سأبدأ، فمجبر أنا على ألا أبدأ بالجيد لأنه حتميّ أن يلي السيئ.

- ابدأ من حيث شئت قبل أن يجف دمي.(قلتها بنبرة حادة)

- اليوم و عند دخولي المنزل وجدته مكتظا عن آخره بأفراد عائلتي...

- بدون مقدمات أرجوك.(بنبرة أحدّ)

-... استدعتهم أمي، لتشهدهم على أنها لن ترضى عني إن لم أحقق رغبتها بزواجي...

انتفض من مكاني ليطير الشرود من ذهني و أنا أرى حبات البصل تتهاطل داخل المحل.

يقفز من على المكتب و يشد بقبضته على كتفي.

- لا تقلقي هنا يبدأ الخبر السّار، إن حققت لأمي رغبتها فاعلمي أني مرغم لأجل نيل رضاها، أخشى أن تنتهي أيامها المعدودة و ألوم نفسي قبل أن يلومني من أشهدتهم أني سبب موتها..

يغيّر من نبرة خطابه:

- أما النقطة التي أريدك أن تفهميها و تركزي عليها و تتأكدي منها: أنك ستبقين أنت كما كنت و مثلما أنت عليه اليوم، زواجي لن يؤثر على مكانتك، و لن يحتل مكان حبك..

صحيح أنه لم نفتح طيلة علاقتنا ملف الزواج كوننا نعيش حياة أفضل من الأزواج، علاقتنا أكبر من أن تحصر بين أسوار الزواج و أكبر من أن يمحوها زواج.

وليكن كلامي شاملا كاملا، أعدك، ثم أعدك، وثم أعدك أنه سيبقى كل شيء على حاله و أغضب منك إن أردتني و لم تطلبيني، حتى لو فرضته علي كل يوم فلا أمانع.

سكت برهة ثم جذبني إليه يحتضنني جسدا في هيئة وسادة، لينفصل عني بسرعة لأنه لم يجد مني استجابة.

مباشرة بعدما تحررت منه أخرجت كل ما في الأدراج من أغراض، أعطيتها له و أشرت له بإصبعي نحو الباب للخروج.

نظر في عينيّ مطولا و لم يعقب، لا أدري ماذا قلت له بالضبط لكنه جرّ جسده و خرج.

كل أنواع الشلل أصابني (شلل أطفال، النصفي، الدماغي، الجسدي، الكلي، العاطفي، الشهواني، الجنسي...)، جعلني طريحة فراش نجيم، ميتة سريريا.

ظلت تلك الاسطوانة في خاطري تدور، لم ينفد شحن البطاريات وكأن الدنيا تشحنها خفية عني.

هل من حل هنا؟..

أكيد لا حل، من غير تحمل البصل، على الجسد أن يكون إسفنجة دبابيس أو.. ينتحر.

يوم كامل تقريبا أمضيته مستلقية على ظهري و امرأة تشبهني في السقف تقابلني.

ترنّ أجراس الباب، أنط لأعتدل في جلستي، مرايا المحل تخبرني بتهكم أن ابنة أخته من دخلت، ظننتها معبأة من طرف خالها لكني لمحت نظارة بيدها فاستلمتها.

و أنا أقوّم إطار النظارة نبهتها:

- قولي لجدتك أن تهتم بنظّارتها و إلّا ستتحمل أعباء صرف دريهمات لدى محلّ آخر لأننا سنغلق المحل في ظرف أيام.

أجابت التي يطلق صفة الملائكة على من في سنها:

- خالي رايحين نزوجوه، و ما يزيدش يجي لعندك..

ذهلت من هذا الكلام، أنطق به حقا ملك، أم شيطان؟

هربت إلى المنزل و يا ليتني ما فعلت، وجدت طبق «الشكشوكة» ينتظرني عرفت أن لعنة البصل تطاردني.

وأنا في الأدراج أطالب باللجوء لدى غرفتي، وجدت طلبي قد حُول لما فتحت عيني -ورغما عنّي- إلى غرفة بالمستشفى، حيث كان هو أول زائر لي.

جلس عند قدميّ وقال:

- متأكد بأن مجيئك إلى هنا سببه حماقة ارتكبتها.

- إن كانت هناك حماقة فعلا فاعلم أنها قد صدرت منك.

- لست مجبرا على إعادة الكلام، لكن لو كان كما تظنين لتحججت بطردك لي ولن أعود إليك أبدا، أما الآن قولي لي هل يشفع لي تقبيل قدميك، عندك؟

ينحني إلى قدمي و يقبّلها أمام ذهولي وأصرخ:

- لكني لم أجبك بالقبول يا حلّوف.

- لا داعي، لازلت أفهم لغة العيون.

أخبريني الآن ما هو الخبر السار الذي كنت ترغبين قوله لي؟

أجيبه بدلال:

- في الحقيقة كنت أود إخبارك بأنه قد أصبح لديّ هاتف محمول، لكن اقتناءه الآن لم يعد في محله.

أما الخبر السيئ فإن صاحب المحل اضطر لتوقيف النشاط، و أنا و نجيم نتضامن معه بالبقاء فيه حتى نبيع أكبر كمية قبل موعد تسليم الآلات، لكن بعد هذا الخبر حصل أمر آخر.

- ما هو؟

- هل تظن حقا أن الأطفال ملائكة و كل قول أو فعل صادر منهم ليس محض صدفة؟

- لماذا؟ (وحاجباه يقتربان من بعضهما أكثر عند كل سؤال).

- جاءت ابنة أختك وقالت لي أنك إن تزوجت فستهجرني ولن تعود إلي.

- ومن قال لك أن ابنة أختي ملك؟ تلك شيطان في صورة إنسان.

وبدلال أكثر أقول:

- عندي لك طلب؟

- عيوني لو تشائين.

- احتفظ بزجاجة عطر شانيل و علبة السجائر فهما هدية لك، وأرجع لي باقي الأغراض، أو أقول لك.. ارجع لي فقط خربشاتي.

- طلبك مرفوض، زجاجة عطر شانيل لو اشتريتها مؤخرا لطلبت منك إرجاعها لأن ثمنها باهظ و أنا لست أهلا لها، أما زجاجة العطر التي أهديتك لاحظت أن منسوبها يوحي بعدم استعمالها و قد غضبت لتكبرك عليها، أما فيما يخص اسطوانة أم كلثوم و أشعارك أو «الورقليات» لن أتخلى عنها حتى و لو طلب مني بيعها في المزاد العلني.

يسكت قليلا ثم يواصل:

- كيف عرفتِ أني أدخن؟
- شخص، بل توأم روحي و لا أعرف ماذا يفعل؟ أنت تعيش بداخلي فكيف سيمكنك إخفاء هذا عني؟
ضمني إليه حتى اختلفت أضلعي، وأردف لي بأيقونة في يدي وقال لي:
- تعمدت إهداءها لك من دون سلسة أو سوار تاركا لك حرية تعليقها في أي مكان، هذه المرساة الفضية تبرهن رسوّك داخل أعماق الفؤاد.

عادت المياه إلى مجاريها، أمضى معي النهار معظمه، وأبى النهوض من سريري لو لم يأتي أبي و أمي لإخراجي.

• • •

مرّ أسبوع على مغادرتي للمستشفى بقيت كالمشردة لا ملجأ لي من دون المحل، إلا غرفتي.
بقيت أترقب موعد زفافه ليمر و ينتهي، كيف سأعيش تلك الليلة التي يمكن أن أنسى تاريخ ميلادي و هي لن أنساها.
ليلة بطول سنين إن قيست.. بياض سرمديّ إن وصفت.
ليلة عرفت فيها معنى أن يكون فوقك شوك و تحتك نار.
ليلة تتذوق فيها الطعم الأصلي للخيانة.
ليلة جعلت من سريري سبيكة منصهرة لا أرغب حقا في لمسه.
عقلي تعطل و فكري جف.
سؤال واحد فقط في ذهني ظل يدور: ماذا تراه يفعل الآن؟
تبّا له إن أتقن اللعبة معها.
و سحقا لها.. أخذته مني جاهزا.. متعلما و فنانا.
لا خيانة أكبر من مضاجعة حبيبك لشخص آخر.
ولا هول أكبر عندما تكون على علم عن ماذا يحدث في الجانب الآخر.

لا فضيلة أنبل من المحبة، و لا رذيلة أحط من الخيانة (صاحب الحكم البليغة الإمام علي).

•••

عند الصباح التقيته أحمل بدل عينين حبتي مشمش.
وبذلك المشمش استطعت أن ألحظ مخلفات تبرجها على وجهه.
انفجرت بالبكاء و أنا أردد:
- فعلتها إذن، فعلتها؟ لماذا وقد وعدتني ألا تفعل؟

أخذني إلى قاعة للشاي ومن يومها أدمنت شرب الشاي، أجلسني على الطاولة و استرسل في الكلام:
- نعم وعدتك بأمور لكن لم أعدك بألا ألمسها، حتى و إن فعلت اعلمي إن كنتِ لا زلت تصدقينني أني تخيلتك مكانها و إلا لم أتمكن من الاقتراب منها.
نصيحة لك أرجوك: حاولي التعايش معها.
أقول بعناد:
- إذن أنا أريدك اليوم، و الآن.
- مستحيل.
- ها قد بدأت تخلف بوعودك، و تنحاز إليها.
- لا يا مهبولة، بدنيّا لا أستطيع.
- سأنتظرك هنا ريثما تأتي بسيارتك، لن أتنازل عن طلبي حتى يُنفذ أو لن أدع هذا اليوم يمر بسلام.

المسكين هو في الحقيقة منهك كالجورب، لكني أريده فقط لي.
جاء بالسيارة و ذهبنا إلى مكان بعيد جديد، هناك فقط أعدت لنفسي مجدها الذي كان على شفا ضياع، و تمكنت في الأخير من اقتطاع جرعات

من التخدير تاركة إياه في حالة جدّ مزرية، جثة هامدة تسبح في بركة من العرق.

(هذا جزاء اللي حاب يعيش بزوج نسا).

يلبس ثيابه بجهد كبير و هو يلهث:

- برد قلبك ضرك؟

أجيبه:

- قليلا، المرة القادمة قل لضرتي أن تترك لي قليلا من السكر، لا تلحسه كله فأنا اليوم لم أجد نصيبي.

ثم أردفت بكلام عقلاني:

- أتعلم؟ خوفي من فراقك هو الذي حملني على هذا التصرف، لقد يئست من هذا الحضن أن ينفتح لي من جديد.

- لا تيأسي (استناي خير من تتمناي و تمناي خير من تقطعي لياس).

وقبل أن نفترق وضبت له البدلة، هذه البدلة هي نفسها التي يلبسها الآن في الصورة، و أنا أشد له حزام سرواله، رفع رأسي بقوة قاطعا شك سمعه لنحيبي، أسرعت بارتداء نظارتي، لكني عبثا حاولت، اليوم النظارات تأبى الانعكاس، نظارتي شفافة عجزت عن إخفاء دموعي، ليس كنظارته التي استطاعت بعتمتها أن تخفي كل هذا البَأس.

ومنذ ذلك اليوم قلّ هطول كميات القُبل والذوبان على قمم الأحضان.

كلما أطلبه من هاتفي المحمول لا يرد.

تبا لهاتف يكشف صاحب المكالمة قبل الرد.

و تبا لهاتف لم أفرح به و لم أواعد به بعد.

الرسائل الهاتفية كنت أظن بأنها تضلّ طريقها، وابل من الرسائل المتدفقة أمطرتها عليه دون أن يرد بحرف.

بدأت أشم فيه رائحة الصفة التي أكرهها في الرجل.
كلّ الرجال مهما كانوا رجالا فهم جبناء.
اكتشفت هذا منه وعممت القاعدة على كل الرجال.
(لا تلوموني ولوموا من كشفكم).
لم تفلح معه اتصالاتي ولا رسائلي، حتى الرسائل التي كنت أبعثها له عن طريق ابنة أخته لا أظن أنه كان يقرأها.
لابد من المواجهة.

أترصده في المدينة، و حيثما وجد و مع أيّ كان أتجلّى له كخدعة ساحر:
- لماذا لا ترد على مكالماتي ورسائلي؟
- مشغول فقط.
- أي شغل هذا الذي يشغلك عني؟ أشك في أنك بدأت تتخلى عني.
- هذه الهواجس لا تلبثين العيش وسطها حتى تقتلك.
- متى سنلتقي؟
- ها قد التقينا.
- تعلم ماذا أقصد باللقاء.
- يوما ما.
- سأنتظر مكالمتك الليلة.
- «يدبرها ربي طريق» (هذه العبارة التي يحفظها و يجيد نطقها).

حملت نفسي وغادرت المكان غير تاركة لفكري تأويل فعلته.
عاد اللئيم إلى عادته اللئيمة.
عاد للأجوبة المقتضبة.
عاد لهواية الصمت.
في غيابه أبقى وحيدة أصارع الذكرى و أصارع حنيني.

و في صمته أبقى وحيدة أتخبط في لامبالاته و أتخبط في بحر ضياعه.
سمعت في إذاعة سخيفة أغنية لا تقل سخافة عنها:
«لو عصفورك منك طار صعب يرجع لمحلو».
هذه الأغنية في الوهلة الأولي زادت من تشاؤمي، لكن لما حملت كلماتها محمل الجد عرفت أن عودة العصفور صعبة لكنها ليست مستحيلة.
لن أتركه يرحل.
لن أفرّط فيه.
صنع يديّ اللّتين أتقنتا فيه كل شيء، و قدّم نفسه لأخرى.
ذهب إلى ثانية، و كنت له قطوفا دانية.
هو لا يملك نفسه، فلماذا أهدى جسده لينام مع امرأة غبية؟
امرأة لا تتفطن لأنثى تشاركها زوجها.
أنا في حياة البرزخ حتى تحين فرصة لقائه النادر، أجمع ما أريد قوله له وغالبا لا أنهي كلامي حتى يغادر.
علمني حبه ألّا أيأس، أن أطلبه من أمام المنزل، أمسكته، لن يفلت مني:
- هل هذا ما وعدت به؟
- لا تبدئي باللوم أرجوك، إن كان كل كلامكِ عتابا فمن الأفضل أن أغادر.
- جبان، واجهني و صارحني، لماذا تخليت عني و أنت تعلم إني أحبك أكثر مني؟
- لن أقول لك شيئا، فكّري و ستعرفين.

هذا الجواب لا أريد من باقي الغبيات المغبونات أن ينخدعن به ويبدأن حقا بمراجعة أنفسهن.
هذا هو الجواب الجبان و هذا هو جبن الرجال مهما تشجعوا، إنه مخرج النجدة، يفرون عبره بعد عجزهم عن مواجهة حرائقنا، هذه الحرائق هم الذين أضرموها في أجسادنا و صبوا الحمم في أحشائنا.

يستدير ليغادر، أتشبث به لعل إحراجه أمام الناس يجعله ينتظر.

لكن لن تجني من اللئيم غير اللؤم، خصوصا إن أنت أكرمته، وأفرطت في تكريمه.

«اتق شر من أحسنت إليه»،.. من أكرمته،.. من أحببته...

لم أطلق سراحه بقيت عالقة كالمنشفة تحت رجله: أرجوك عُد لي، تأكد أني لن أتركك، إن كرهتني لأن الدنيا أدارت لي ظهرها لا تذهب فهذا مجرد زكام، و أكيد سأعيد لنفسي مجدها الضائع، لا ترغمني على الانتقام منك، تعرفني.. بأسي لا يرد.

لا جدوى، بقيت جالسة على الرصيف و أنظاري تتبعه و هو يختفي.

رجعت إلى المنزل و ما رجوعي إليه إلا لأشحن بطارياتي من جديد فأنا لم أيأس، لم أعد أذكر من كلامه طيلة تلك الأشهر إلا «... لا تقطعي لياس».

ربما هو مجرد امتحان و يمر.

للقاء آخر لابد لأيام كثيرة أن تمر، يدخل المدينة خائفا يترقب و يخرج منها مرعوبا مستترا.

أتناول هاتفي أصرخ فيه: أغلط مرة و كلمني.

و لما أريد أن أكون أنا من يتصل، تجيب تلك المرأة التي كرهتني: نحن حدود البشر و أنتِ تطلبين القمر..

الليل و النهار لا يتعاقبان.

للزمن دراية تامة بنشراتنا النفسية.

إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

أحسنت يا ولادة بنت المستكفي (ما يحس بالجمرة غير اللي داس عليها).

أما النهار لولا موسيقى التانغو لأصبح يشبهه في الصمت.
جواد في الصمت، جواد في الغياب.
أقتات على عقار التانغو المفيد لتخفيف شدة الألم، لأبكي قدر ما أشاء دون أن يتأزم قلبي.
هذه المرة لم أرقص بثياب الرقص، فضلت أن يكون بجسد عارٍ، ليبرهن كفاءته على الرقص من دون مساعدة الثياب.
أريد لما أرقص، أن أعرق و أبكي وأنزف حتى تغادرني كل شوائب العشق.
كلما أعدت الأغنية رأيت مخلفات جسمه تنحدر منصهرة على جسدي.
و في آخر قرعة طبل انتزع المرساة من جيدي و ألطمها بالجدار، انحني أمام المرآة و افترض انسدال الستار،.. و تصفيق الجماهير البائسة.

أيام الجمر تعاقبت على حالي، و سنين المجاعة نهشت بدني.
يرمي لي بفتات شحيح كلما ألقاه «يديرلها ربي طريق».
و هل يرضى بالفتات من كانت تخمته مزمنة و لا ينام إلا و هو شبعان؟
ربّ امرئ بطنه منتفخة و هو جوعان.
بقيت صائمة أعدّ الأيام، لعل بعد كل صيام عيدا للإفطار، و في الوقت الذي كنت في انتظاره أمرض به، كان يتداوى مني، أصبح كالدّب من فرط السمنة و أنا كالمسمار من فرط الهزال.
و عبثا حاولت عندما كنت أزور الأمكنة التي كنا نلتقي فيها ظنا مني أني سأجده هناك أو بوصلة الحب ستدله علي..
ما زادني ذلك إلا وجعا في القلب و ذكرى تهيّض الوجدان، خصوصا لما وصلت إلى حقل السنابل ظننت أني ضللت الطريق، صحراء قاحلة و كأن تلك الخضرة التهمها حريق، سألت شخصا واقفا ليجيبني بأنه

الحصاد، تذكرت فورا أن لكل شيء في الحياة موسما لقطف الثمار.

دخلت الكوخ و من هول الصدمة لذت بالفرار تاركة العناكب والجرذان تستمتع بالفراش.

ودّعت صاحب الحقل على أمل لقائه العام المقبل بنفس الاخضرار، لكنه أردفني هو الآخر بمفاجأة أخرى أنه لا ينوي زراعة القمح مجددا،.. سيحوّله إلى حقل بصل.

أتراه عام الندرة؟

أم لعنة البصل ستطاردني حتى و لو رزقني الله الجنة؟

حملت جسدي أجر الخيبة متأبطة حسرتي و نسمات باردة تتحرش بخصلات شعري، أجادل نفسي التي تقسم لي على أنه لا مفر إلا النسيان، ونصحتني بتعليقه على غصن شجرة حتى يسقط من فكري عندما يمر الخريف.

وبين النسيان والكره خط رفيع، بل وليجب أن ننسى. لابد لنا أن نكره.

ولنكره لابد لنا من الإكثار من التذكر ونأكله كاللوز ونحن نضحك.

نعم نضحك رغم الألم.

فإذا عضك الدّهر وفرّ، يجب أن تضحك حتى لا يظن أنه عليك قد انتصر.

إن كان الحب من ذهب فاعلمي يا من تشبهني أن فراق الخائن من الألماس.

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس أبدال و في الترك راحة وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في خل يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ويظهر سرا كان بالأمس قد خفى
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها (حبيب محبا) صادق الوعد منصفا

أفرغت جيوب فكري ودخرت بعض أنفاسي ونبضات قلبي، درست ميزانية عواطفي، وأصبحت أقتات على معاش زهيد.

صرفت بعضه ذات يوم، لعل الطائر قد عاد.

شكلت التسعة أرقام الصحيحة و أدرت عجلة الحظ..

«إن الرقم الذي طلبتموه لم يعد في الخدمة»..

خسرت الرهان،.. بسكتة هاتفية.

مضطرة يا لمجد،.. بل الحكمة تقضي بذلك. أن أقتل ثاني ضحاياي بعدك، ومضطرة إلى الاحتفاظ بالصورة.. و الحكمة تقضي عكس ذلك..

فعين الصواب تمزيقها بعد قتل صاحبها للنسيان، لكن سأحتفظ بها لا لشيء إلا لأتذكره كل صلاة فجر.. وكل أيام الصيام، خصوصا العشر الأخر..

فنحن قوم نولع بتقديس أغراض حتى و لو كانت دون قيمة..

قتله ليس اعتباطا.

إنما جوابا للأمكنة التي مررنا بها، للأزمنة التي عشناها، للوعود التي قطعناها،.. و أخلفناها، للآمال التي بنيناها، للأفكار التي حاربناها،..

لست شجاعة بما يكفي لأقول لهم جميعا.. أن هذا الرجل قد ارتحل، أن هذا الطائر قد غادر..

أتظن أن هناك جوابا آخر لكل العالم غير أنه مات؟

أنا فخورة لأني أعلنت نعيه هنا بالذات في روايتي، و فخورة أكثر لأني تركت لروحه.. ليس باب القفص فقط مفتوحا، و إنما ملّكته كل القفص.. وأنا سجينته.

لكنه شاء الإله.. ثم شاء قلمي.

«إذا أردت شيئا بقوة فأطلق سراحه واترك له باب القفص مفتوحا، فإن عاد إليك فقد كان دائما لك، و إن لم يعد فإنه لم يكن لك منذ البداية».

أحلام مستغانمي.

الصورة الثانية:

شـــحال من سلطان كان في الدنيا.. الجيوش لأمره طايعاه..
مـــال وعـــز وقصـــور وســـرايا.. العـــسّ عليـــه بالألوفـــات..
وفي الغفلـــة انقلبت الحية.. في ليلتو مـــا صاب وين يبات..
وكّلتي فـــلان عســـل وفاكية.. وفـــلان شـــمّختيلو الفتات..

المرحوم: كمال مسعودي.

يا لمجد لفتة طيبة من فضلك.

بقيت أتداوى لمدة عام كامل بعطر شانيل رقم 5، شفيت نوعا ما من لعنة البصل، على الأقل لم أعد أشم رائحته تفوح مني.

أول بوادر تماثلي للشفاء، حصولي على شهادة البكالوريا وكهدية من الحياة شهادة أخرى في الشبه الطبي.

ولاستئصال الورم نهائيا لا بد لي من مواصلة النسيان،...قطع الجسور التي تؤدي إليه، جاءت البكالوريا في وقتها لأتخلى عن هذا المكان.. عين ولمان.

قررت مواصلة تعليمي العالي بالعاصمة، واخترت الحقوق لأنه بتجربتي الخاصة لم يعد هناك من يعلم بحجم الحقوق المهدرة، أنا عكس زميلاتي في الكلية تماما، أقسمن على إن امتهن المحاماة ينقذن من يروهن مغبونات من أوحال الرجال.

أما أنا فرغم اضطهاد الرجل الأول لقلبي، إلا أنني لم أكره كل الرجال.

الرجال والنساء على حد سواء.

هناك من تعاني من الرجل، وهناك من يعاني من المرأة.

(أنا مع النسا ضد رجالاتهم، ومع الرجالة ضد نساهم).. إن أحسنوا.

* * *

فضلت أن تكون أول رحلة لي إلى العاصمة بالطائرة.

أنت الأول يا لمجد سأخصك بخبر حصري، فلا أحد يعلم حتى الآن لماذا أصررت على أن تكون أول مغادرة لي من سطيف بالطائرة.

لا لشيء إلا لسبب يظنه الكثيرون تافها و أراه وحدي صائبا.
لم أشأ توديع سطيف كمدينة،.. لكن كذكرى.
أردت أن أترك أحمالي و ذكرياتي خلفي، أردت أن أغادر جوا حتى لا يلتصق بنعلي تراب أجده في العاصمة ليذكرني، يذكرني بالقمر، تماما كصورة نعل غاغارين يوم أقمر.
في العاصمة فقط تمكنت من تشييد مقبرة حولتها بعدئذ إلى مشتلة، من رفاة الذاكرة القديمة، تزهر أحلام جديدة، وفي العاصمة فقط تمكنت من تحقيق مآرب لم و لن أحققها في سطيف.
ومن العاصمة أحضرت معي عدة صور.
عدة صور.. عدة ضحايا..
مشاريع موت وتحنيط.

أصبح لي زوار جدد، أصدقاء و جلساء جدد.
زارني الضحك، وصادقني الفرح، وجالسني الحظ (أحيانا فقط).
بعدما نسيت الضحك لأن الدمع كان أنيسي، و معنى الفرح لأن الحزن كان جليسي، و مصطلح الحظ لأن لعنة البصل ياما طاردتني.
مجموعة الصور هذه التي بين يديّ يخيّل للناظر إليها أنها لمجموعة رجال، بيد أنها لشخص واحد، سأختار واحدة منها لتكون مصدر إلهامي، ولأسباب أخرى كونها الوحيدة التي لم يعطها لي ولا يملكها غيري.
أما في باقي الصور كان في معظمها ذا طابع بدويّ ساذج. هذه صورة له بين الأزهار، و هذه في الجبل مع الخراف، و تلك يلبس فيها أحلى وأغلى ما يملك، بنطال جينز أزرق وقميصا أصفر، و حذاء رياضيا ضخما أبيض.
تعرفت عليه في نادي الكلية في يوم ماطر، بقيت واقفة لعدم وجود مكان شاغر، و كان هو يجلس هناك في الزاوية منفردا، جاء إلى غاية عندي عارضا عليّ طاولته.

بعد تردد طفيف قبلت عرضه.
سألني بطلاقة دون عقد أو مقدمات:
- لماذا لم تجلسي من الأول؟
و بإيجاز أجبت:
- كل الطاولات محجوزة.
- لكن طاولتي بها مقعد شاغر.
و بنوع من الإسهاب:
- لا، فأنا أحب الاستحواذ، بالإضافة إلى أني لم أرغب في الدخول لولا المطر و لولا جذب هذه الأغنية لي.
- و من تكون هذه المغنية؟
- لا تمزح.
- لا و الله العظيم إني جاد.
- لو تسمعك ستدخلك السجن (من عند القهواجي مباشرة إلى السركاجي)، إنها سيلين ديون و هذه تقريبا أفضل ما غنت That's The Way It Is، هذه هي الطريق.
- يا أختي أنا صاحب البحة الشجية يكفيني.
- من هو؟
- الآن أنت اقترفت جريمة بأتم معنى الكلمة و ليس كما أنا، إن لم تعرفي من هو صاحب البحة الفريدة من نوعها فأنت لست جزائرية، من المفروض أن تسحب منك بطاقة التعريف الوطنية.
- واش كون هو؟ رايس البلاد؟
يقول و قد لفت انتباه الحضور بقهقهاته:
- دحمان الحراشي.
- واش يخدم هذا السيد؟
يقول بتأسف:
- لا لا، هكذا بزاف.

ثم يردف بعدما وقف:

- هيا نخرج أحب شم الهواء بعد المطر.

رافقني إلى الحي الجامعي الذي أقطنه، و خلال تلك المسافة دار جلّ حديثنا حول أنواع الموسيقى التي نحبذها، و من أي جهة من الوطن ينحدر كلانا، و ما سبب وجود كل منا هنا بالعاصمة...

كانت تلك الحلقة الأولى لمسلسلنا، و على غير العادة فهمت معظم فصول القصة في أول حلقة..

لكني لما أرجعت شريط اليوم قبل النوم، تفطنت لغبائي الفاحش، ولذكائه في استدراجي. فإضافة إلى أنه استطاع إقناعي بصحة مثل فرنسي يقول أن مسألة الأذواق لا تناقش، الذي كنت اعتبر صحته ليست مطلقة في كل الأحوال.. استطاع كذلك أن يعرف اسمي، نسبي، ومهنتي..

أما أنا ففزت بالقشور فقط. أمور لا تسمن ولا تغني من فضول.. عرفت مثلا أنه من الشرق الجزائري، و من لهجته يخيل إلي أنه أوراسيّ، ومن خلال سنه لم أرجح احتمال أن يكون طالبا بالكلية.

ولما أتذكر قوله بأنه لا هو أستاذ و لا حتى موظف إداري، يصدمني سؤال محير: لماذا كان في الكلية إذن؟

عموما، و رغم عدم دقة إجاباته، إلا أني ثقت به.

و لم أكذبه. فعدم تلعثم كلامه يبرر صدقه.

استمرت علاقتنا مجرد صداقة قرابة الشهر، تمكن خلالها من الظفر برقم هاتفي و لم أتمكن من الفوز بغير عموميات كلامه.

عندما يروي لي قصة حياته يحظى بكل انتباهي يثير شفقتي على تلك الطفولة البائسة التي عاشها في كنف باديته، و يثير إعجابي على تمكنه من بناء نفسه و تجاوز كل عراقيل الدنيا إلى أن وصل إلى هذا المنصب الذي أذاقه من جميع أصناف رغد الحياة.

هذا المنصب الذي لم و لن أعرفه مدى الحياة.

الصورة المختارة يظهر فيها بكامل البراءة.

رجل طويل عريض، ذو بشرة بيضاء تسر الناظرين، و رأس شبه طويل أصلع المنتصف مكسو الجانبين.

الفرق بين هذه الصورة و غيرها شاسع، فالجنان التي خلفه ليست إطلاقا كالأزهار التي حوله، و المكان يوحي بالترف ليس كقفار الجبل الذي لا حياة فيه، أما لباسه الفاخر فمنسق عكس الأبيض و الأزرق زائد أصفر..

يا رأس المحنة لله جاوبني..

أسأله وأنتظر معجزة إلهية تنطقه كتلك الواقعة التي تغنى بها البار عمر المعروف لدى آبائنا وأجدادنا عن ذلك الرأس الذي وجده الشاعر سي لخضر بن خلوف عند العودة من رحلة صيد، حيث ظل يترجى تلك الجمجمة بلازمة يرددها عند كل مقطع «يا راس المحنة لله جاوبني»، حتى أنطقه الله بوساطة ملك كريم، رغم أني لم أعد أذكر منها الكثير إلا أنني أنصحك بسماعها فهي جدّ رائعة ومعبرة خصوصا أنها تسرد قصة واقعية..

في البداية يستهل قصيدته بالتوسل لهذا الرأس أن يجيب ثم يدخل مباشرة في سؤاله عن هويته إلى أن ينتهي حيث نطق و أجابه عن اسمه، و نسبه، و ما الذي جاء به إلى هنا و ما هو مصيره؟

و في الختام يختتم سي لخضر بن خلوف قصيدته بالدعاء إلى الله بالمغفرة و الرحمة و الصلاة على الرسول الكريم.

يقول الشاعر:

جيت نسالك و أنت ترد جوابي
حشّمتك بالله كلمني
هذا وطنك ولّا جيت براني
يا راس بن آدم لله كلمني
هذا الراس الباقي في بلاد الكفرة

ندعيك للجوّاد الخالق القيوم
للباعث الوارث الخالق لا يُرى
مادام الدهر قيّام ليك الدّوم
يزرع فيك الروح و عيد لي كيف جرى
حدثني بالله جازو عليك هموم
ولّا أنت منسوب للبيت أهل السنة
قلبك طامع بالتحرير متهني
ولّا أنت خاين قبضو عليك خيانة
و باعوك بقيمة ربعين سلطاني
ولّا مسلم من أصحاب الجنة
ولّا ظالم من الظّلام نصراني
ولّا يهودي خارج من الملّة
لا يريني وجهك لون العار
.....
.....

• • •

أعلـم يقينا أن العربي إذا تحول مائـة و ثمانون درجة من فقر مدقع إلى ثراء فاحش.. أنه سلك طريقا ملتويا.. و مختصرا.

لم أعـد أذكر من قـال: اثنان لا يصدقهما الجزائري: الكسـب الفوري من حلال، والموت الطبيعي.

أريـد فقـط معرفة كيف تحـوّل هذا البدوي من هـذه الصورة التي في يميني إلى هذه التي في شمالي؟ من أزهار هذه الأعشاب المتطفلة، إلى تلك التي تصبح أنت أمامها متطفلا؟

لا يبدو لي فارق الزمن بين الصورتين شاسعا..

أمـا لماذا يظهر في الأولى بشـارب و الثانية من دونه؟.. فذلك سـؤال

يضع العقل بالكف، و البدويّ الجزائري ابن الأوراس الأشم خصوصا، يُمزّق إلى أشلاء و لا يستغني عن شاربه، بل ربما يولد به..

حتى و إن شريعتنا الإسلامية لا تحبذ الشوارب مخالفة لليهود، إلا أن كثيرا من المجتمعات العربية الأصيلة لا يمكن لها أن تتخيل خيرة رجالها و شبابها أمارد، لربما قد عرفوا أنه هناك يهودا في كذا مجتمعات إسلاموعربية أخطر و أشرس من يهود تل أبيب..

من أنت يا صاحب الصورة؟.. أعود و أسأل..
أتراك تذكرني؟
أتراهم ضربوك؟
أتراني أجدك؟
أحبك، وربّ السماوات السبع إني أحببتك..

أتوسل إليك، رغم ثقل الأمانة إلّا أنه ليس لي من حلّ آخر..
أرجوك يا لمجد، ربما قد يظهر. بل سيظهر، و تنكشف الحقيقة و قد أكون وقتها في عداد الموتى.. أو المفقودين في غياهب السجون:
اسأل عني، و فتش في أغراضي و ابحث له عن سبيل للخروج بين أوراقي و سطور كتاباتي..
آهٍ يا حسرتي و يا ألمي..
حسرتي على سرعة البداية، و سرعة النهاية.
و ألمي على سرعة الحب، و سرعة الفقد.
كنت أظن يومها أن للحب المراسيم نفسها..
فتأكدت اليوم أن للفراق المراسيم نفسها..
انفصال، فألم، فبكاء، فنسيان، فذكرى،.. فحبٌّ جديد.

• • •

عند كل لقاء لا ألمح ولا تغير طفيف في طباعه، هادئ لدرجة أنك لا تسمع كلامه و أنت بجانبه إلا إذا ضحك، رزين لا يغضب حتى و لو شتمته، حنون مهما قسوت عليه أو وبخته.

كم أنت جميل يا أمين؟

كم أحببتك و كم أحببت تشبثك بطباعك و أخلاقك.

لأجلك أحببت كل من يحمل اسم أمين، و لأجلك لن أحب إلا من كان أمينا.

آه يا أمين لو تصلك رواياتي، و تعرف فقط حجم الفراغ الذي تركت على صفحاتي...

لا أريد منك أن تحبني إذا رجعت..

لا أريد منك مالا كالذي.. كسبت.

أريد منك ذلك الصدق، العملة النادرة بين الرجال.

حتى هذه الكلمة لم نعد نسمعها أو نستعملها إلّا إذا صادفت ذكر اسم رسول الله الكريم صلى الله عليه وسلم.

أريد هدوءك، و أريدك أن تحقنه في شراييني.

حنانك الذي يقسم ظهري..

جمالك الذي يرتطم بي و يفجرني، ليمزقني أشلاء.. و يجعلني لا أعرف نفسي..

لو وضعوا القمر في يميني والشمس في شمالي ليثبتوا لي أنك أذنبت، ما صدّقت حتى و لو رأيت ذلك بأم و جدّة عيني.

لكن..

ما تلك الكأس التي بيمينك؟

شكلها لا يوحي على أنها كأس ماء، لون محتواها لا يوحي على أنه عصير..

لا تقل، و لا تدعني أشك بأن ريقك معكّر بالخمر؟

لا تفسد تلك البسمة بتلك الكأس..

إنـك أنت أمين، و ليس كما يزعمون، أكيد هناك خلل ما في الصورة، إن لم تكن مفبركة فإنك مرغم.

ذاك الدّب السمين أخفى عليّ أنه يدخن، لكني كشفته دون أن يعلم، فكيف لا أنتبه لتصرفات أمين و هو معي أينما أُحل و أينما أرتحل؟

لا زلـت أذكـر يـا لمجد يـوم ضرب لي موعـدا عند ريـاض الفتح، لم أدر حينهـا لمـاذا اختـار ذاك المكان بالضبـط، ربما يريده معلما يُشـهد كل الجزائريـين عـلى أنه أحبنـي، أو أن عظمة الحدث تتطلب علوّ وشسـاعة وضخامة المكان.

لم يشـأ أن نجلـس عـلى الطـاولات والكـراسي، يريـد اعتـزال البروتوكولات فأجلسـني على الرصيف وافترش حافظة أوراقي ورمى برأسه داخل سلّة حجري.

يهتزّ إيوان كسرى، هذه علامة من علامات الوقوع في الحِجر، أقصد في الحب.

أغمض عينيه و لطول صمته ظننت أنه قد نام و تركني، مددت يدي إلى ذقنه الناعمة أتحسسـها و أتمتع بملمسـها جيئة و ذهابا، و لقطع رهبة الصمت همست له.

- أمين. ماذا بك؟

يرد و هو يقطب حاجبيه و يبقي عينيه مغمضتين:

- لا شيء، لماذا هذا السؤال؟

- أنت لست ككل الرجال.

يسألني دون أن يفتح عينيه:

- ما هذا الاتهام الخطير؟ أو لأقل الغريب..

أجيبه و كأني أكفر عن ذنب:

- لا، و إنـما قصـدت أن أغلب إن لم أقـل كل الرجال يطاردون المرأة حتى آخر نفس، و ما إن يلحقوها يكشـفون أوراقهم في أول فرصة تتاح

لهم، يقّدمون الحب بسخاء علهم يحصلون على فتات قد ترمي به، و قد تمتنع كما يكون في كثير من الأحيان.

في حين تكون المرأة وقتئذ ضحية حكمة يونانية التي تقول: يقدم الرجل الحب ليحصل على الجنس، وتقدم المرأة الجنس لتحصل على الحب.

لكنك ما كنت الأول و لا تركتني أكون الثانية؟

يقاطعني بكلام هادئ:

- و كيف تريدين الرجل.. في كلمتين؟

- يكون أو لا يكون.

قد مضى على علاقتنا أكثر من شهر و أنت تلتزم الحياد، ربما لديك مشكل و تأبى التصريح.

يرفع يده و بإصبعه يشير إلى جيبي ليسأل:

- كم رجلا قبلي مرّ من هذا الطريق؟

أرتب هندامي لأواري جيبي و في دهشة أقول:

- إن قلت لك في البداية أنك لست ككل الرجال،.. هذا لا يعني أني أعرفهم جميعا، و الحقيقة التي تريد، عرفت واحدا فقط.

- أين هو الآن؟

- مات.. و بصراحة أكبر لا أملك غيرك الآن.

- أأحببتني؟

- نعم، منذ زمن، هل لديك مانع؟

يصمت لاستطرد أنا في الكلام:

- أمين حالتك النفسية لا تعجبني، كأن هموم الدنيا ألقيت عليك، إن احتجت لشيء فقل لي أرجوك؟

يسألني مستهزئا:

- ماديات؟

- ماديات أو غيرها، أنا قلت أي شيء: مال، خدمات، استشارات،.. فأنا جاهزة.

يجيب بعد تنهيدة طويلة:

- هكذا فقط.. أكثر من هذا لا أريد، أريدك بجانبي سندا لي، تشاركيني وحدتي، آهاتي، و آلامي حتى و إن كنت تجهلينها، «علمتني أتذوق المر في هواك يصبح سكر»..

ثم يواصل بنبرة المهزوم:

أنا كذلك أحبك، لكن اعذريني ليس في مقدوري تقديم الأكثر.

بعدما تأكدت أني لن أظفر إلا بعموميات كلامه، سلكت أيّ طريق.. فقط لآخذ منه المزيد من الاعترافات..

انتحلت صفة الطبيب النفساني و بدأت بطرح الأسئلة الاستكشافية التشخيصية:

- يقال: «قل لي من أو ماذا تسمع أقول لك من أنت؟».

- و أنا قلت دحمان الحراشي مرارا.

- يا سيدي عرفت أنك تعشق الأغنية الشعبية لكن أُذكر لي فنانا آخر تحبه وأعرفه حتى يتسنى لي تشخيص حالتك.

وباختصار يجيب كأستاذ يمنح تلميذه رأس الخيط و يطلب منه أن يظهر له شطارته:

- كمال مسعودي.

نعم يا لمجد..

كان متورطا في حب كمال مسعودي، ومن أحب منا شخصا فهو على الأقل يشبهه، كمال مسعودي لم أكن أَرَاهُ مجرد مغنٍّ شعبيٍّ،كنت أراه في الحكمة المتنبي، وفي الثورة والتحرر تشي غيفارا وفي الغزل جميل بثينة. قدوة الشباب، مقدّس الجمال. هو كذلك إلى أن اختطفته المنية من شبابه بغموض..

يا لمجد تأكد أن كل من نحبهم يرحلون بغموض، هواري بومدين، محمد بوضياف، كمال مسعودي، ياسر عرفات، المهاتما غاندي، مايكل جاكسون... والقائمة مفتوحة مادمنا نحب.

والتقيت أمين غير أمين الذي أعرف، توقف عند قدميّ بسيارة BMW رباعية الدفع سوداء، ركبت و الذهول يسدّ فمي، مد يده نحو صندوق السيارة الذي يتقدّمني و من بين أغراض مشوشة أخرج علبة حمراء مصنوعة من القطيفة الناعمة و قدمها لي.

فتحتها و إذ ببريق ساعة SWATCH ذهبية يأخذ بصري، نظر إليّ و أمرني بأن أطّلع على رصيد وحداتي، وجدت أرقاما لمبلغ لم يسبق لي قراءتها على شاشة هاتفي الذي طالما اشتكى جوعه للوحدات، مبلغ يكفي للاتصال نحو الصين لمدة يومين.

قطع فرحتي رنين الهاتف، ألقيت نظرة وجدت الرقم مجهولا وبعدما أجبت تأكدت من أن المتصل يريد التحقق من صاحب الرقم ليردف مباشرة بعد قطعه للخط برسالة قصيرة كانت ستورطني إن اطلع عليها أمين، الذي انطلق بالسيارة دون أن يسألني من المتصل، و دونما اهتمام بتغير تعابير وجهي..

لم أكترث لها حتى و صلنا الشاطئ، كان المكان شبه خالٍ، فضل أمين ترويض البحر الشامس و فضلت أنا البقاء في السيارة اقرأ الرسائل التي كانت تتهاطل على هاتفي طوال الطريق، لأكتشف في إحداها أنها من ذلك الدّب السمين، اكتفيت ببيتين من الشعر لعنترة لأرد عليه:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

هذا ما تعلمته من السيد المسيح، أن أرد الحجر من حيث جاء.. و أن أمرر على نحر هواي سكين الفناء.

ماذا يريد مني، تخريب ما تركه في حياتي شبه قائم؟

فلتذهب و لتتركني، اذهب كما تشاء، و امضِ كما تريد.

حطّم أواني الزهر و المرايا، هدد بحب امرأة سواي.

اذهب و اسمع جيدا هذه الأغنية.. و تعلّم منها كيف يكون الكبير

كبيرا، و الحقير حقيرا.

رفعت رأسي لألمح أمين يتجه نحوي، أغلقت الصندوق بعدما رتبت ما شوشه فضولي، نططت بسرعة خارج السيارة لألفه بالمنشفة، وصلت إلى جسم مبلل رطب أبيض متوسط.

يا ليتني كنت منشفة.

صدره الأمرد ينافس في العلو تضاريسي، يرفع ذراعه ليزيل الماء عن رأسه تاركا إبطه يغريني بالسكن تحته.

يا رجلا لم يتصدق عليّ بما أنعم عليه الإله.

يا رجلا جعل من فمي خرطوما لا يبلغ شفاهه.

رجل اقتصرت معاشرتي له إلا في الأحلام.

رجل اختفى و تبخر بغموض لا لشيء إلا لأني أحببته.

لا تحبوا حتى لا يموت من أحببتم.

هكذا ضاع أمين يا إلهي..و أنت الأعلم.

هكذا مُزّقت ورقته و ضاعت من سجل قدري و أنا لا أعلم.

و لما سقطت، خُطفت و هرّبت إلى من يحترف النميمة، الخيانة، إلى من يمتهن النفاق و يتقن الشقاق بين الرفاق.

فجرائدنا في الفضائح سباقة، و في المدح منافقة.

بمرور ثلاثة أيام فقط من يوم اختفائه، غلّفت صورته الصفحة الأولى لكل الجرائد، و بالبند العريض: «الكشف عن أكبر فضيحة احتيال».

ما أدراهم على أنها فضيحة؟

وما أدراهم على أنها فضيحة احتيال؟

وعلى أنها الأكبر، أو على أنها أُكتشفت؟

أردت وقتها شراء كل الجرائد، أن أصارح كل من أجده في الطريق بأن هذا الشخص أعرفه، كدت أصرخ في كل من يتصفح جريدة و أقول له ألا يصدق ما يقرأ..

أيها الناس.. أمين بريء.
أيها الناس.. هذا حبيبي.

توقفت الأرض وأصبحت أنا التي تدور، أبحث عمّن ينصت إليّ.
نقضت يميني و ابتعت جريدة، قرأتها حرفا حرفا متحملة عفونتها.

بكيت ثم ضحكت..
و ما ضحكي إلا هستيريا الفوز بمضيق أمان.
بكيت لأني لم أستطع هضم الخبر.
و ضحكت لأن الجرائد لم تتمكن من العثور على أية صورة له، سوى واحدة هي هذه التي تكسو الصفحات الأولى للجرائد، حمدت الله لأنها لم تكن واضحة، و يتعرف عليه الناس.
بقيت أتساءل طوال الوقت: كيف لم يجدوا غير هذه الصورة والكل يتسابق في وضع أحسن الصور و أجودها؟ و لماذا صورة واحدة لجميع الجرائد؟ هل كل المصورين كانو في عطلة أم أحيلوا على التقاعد الإجباري؟ و هذا الذي أخذ له هذه الصورة، ألم يكن بإمكانه التقاط الكثير؟ و لماذا لا يبيعها إلى باقي الجرائد و هو يعلم أنها سخية خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالفضائح و كانت الصور حصرية؟
إذن: يمكنني جني الملايين من الصور التي أملكها له، فما بالك بالتي لم يعطها لي...

وبمجرد تذكري للصور التي أملكها، رجعت بي أرقام الزمن إلى الوراء بسرعة، متوقفة عند اليوم الذي زارني فيه بالسيارة، اذكر لما فتح الصندوق ليعطيني الهدية لمحت الصورة إلى جانبها شارة جنرال، تحينت فرصة سباحته لآخذ الصورة غير مكترثة للشارة.
آه يا أمين قد خسرت شبابك في لعبة قمار.

آه يا أمين لماذا لعبت مع الكبار.

لو عرفت حينها لأسمعتك أغنية الملك Beat It ينصحك فيها بالابتعاد.

The fire's in their eyes, just beat it

النيران في أعينهم لهذا ابتعد

They're out to get you

إنهم في الخارج لينالوا منك

Then they'll tell you it's faire

وبعدها سيقولون هذا عدل

حتى ملهمك سمعته في أكثر من مرة يردد: قيس قبل ما تغيس: عندما أكون معك بالسيارة..

لماذا يا أمين؟

من أجل سيارة؟

من أجل دنيا زائفة؟ و مال حرام؟..

ليتك لم تعثر على متجر السعادة. أوهموك أنه يبيعها بالمال..

منذ متى أصبح الضحك يُشترى؟ أيّ صيدلي يبيع دواء للملل؟ أي عطّار يبيع شذى للأيام؟ أي نحّال يبيع عسل الحياة؟ أي جزار يبيع لحما رخيصا و دون عظام؟..

يا أمين، ما كان يحدث هذا لو أشركت من تحب الكلام.

كان يكفيك خبز، ماء، حب و أمان، لتقول للدنيا: سلام.

هكذا إذن. مرّت خمس سنوات على تبخرك، كنت في يوم ما عاجزة عن التخيل كيف ستمر.

خمس سنوات كانت كفيلة بالنسبة لهم لهضم الدنيا، و كفيلة بالنسيان لهضمك.

ماذا جنيت؟ وماذا جنوا؟

ربحوا -دوما- كل شيء.
و خسرت -قطعا- كل شيء.
يأتيني قول من حديث طويل جرى بيني و بين صديقتي التي تعمل بمصلحة البريد، يوم تصفحت أمامي جريدة و وصلت صفحة الاختلاسات...
- أتعلمين فيما أفكر؟
أجبت دون أن أتوقع أنها ستحدّثني عمّا تقرأ:
- و فيما تفكرين؟
و بجدية تامة قالت:
- ما المانع في أن أقترض من الدولة بضع مليارات، أو اختلس من أرصدة الزبائن مبلغا محترما، ثم أسلم نفسي..
- بالشويّ عليّ، لم أفهم في البداية تقولين مليارات.. ماذا تفعلين بها؟ ثم تقولي أرصدة الزبائن.. حرام عليك، كل زبائن البريد يدعون للشفقة..
و بنبرة ساخرة واصلت ظنا مني أنها أخطأت في الكلام:
- لم تقولي أهرب خارج البلاد، و قلت: أسلم نفسي؟؟
- هذا هو بيت القصيد. (صارخة) و راحت تستطرد في الكلام:
اقرئي معي هذا المقال يقول السّخفي فيه كما تحبين تسميتهم: أن مديرا لبنك اختلس مبلغا يسهل نطقه باللسان تعجز عن أكله النيران، حتى أن وكيل الجمهورية سأله عن كم غرفة لزمته لاحتواء هذا المبلغ؟؟
ثم تواصل و هي تحدق فيّ:
- أما أنتِ فيجب أن تسألي نفسك عن: هل راتب المدير ضعيف لدرجة أنه يمد يده للاختلاس من باب يخلّط العسل بيديه و لا يتذوق منه؟ هل فاضت خزائننا لدرجة عدم استطاعة مراقبتها من باب المال السّايب يعلّم السرقة؟؟
أقاطعها و كأن كلامها بدأ يهمني:

- و الله لازم تقوليلي، لم أكن أعرف أنك المفتش الطّاهر..
- اسمعي يا مخلوقة، يا الغافلة: لو اقترحت عليك أربعة ملايير فقط بسنتين سجن...
- الآن فهمتك. (صارخة)
واش تسوى سنتين سجن أمام أربعة ملايير، والسجن عندنا 5 نجوم.
ثم أصرخ في وجهها كأني استفقت من غفلة:
- اطوي عليّ هذه الجريدة لربما سمّ ورقها أو سخافة صحافييها أثروا عليك..

بعد كل هذه المدة، و بعد تقاطعي مع أمين، استنتجت أن كلام صديقتي له أكثر من بعد،..
من سرق قطعة رغيف و هو جائع..دهر من السجن.
و من سرق ملايير و هو شبعان..لا حرج أن يطّوف بالسجن، برهة ويخرج عند أول مناسبة قبل أن يرتدّ إليه طرفه..

ليتها فقط كانت لك يا أمين.
جئت تسعى، أضعت تسعا.
ضاعت منك طفولتك الضائعة، و أضعت شبابك..
ضاع منك الهناء، و أضعت أحبائك..و حبا كان سيولد بين أحضانك..
أين أنت لتجهش أمامي بالبكاء و تقسم لي أنك لست أنت؟
أين أنت؟.. و أتراك تذكرني؟
ليتني فقط أعرف.. من جريدة أخرى مبدأها الصدق.....
التي لم تطبع بعد.
ذكراك ستبقى ما بقي مقام الشهيد.

ذكراك مطبوعة على ورقة المائتي دينار.
تلف معصمي ذهبا.
موشومة على قلب كان معك سعيدا.
مرسومة على جسد لفراقك ملتهب بالنار.
ليتك في سجن أو قبر..... لأزورك.

الخبر يجيبوه التوالى.. دحمان الحراشي.

يا لمجد ضعه على طاولة النصب التذكارية بعيدا نوعا ما عن اللئيم، وضع أمامه وردة بيضاء.
فأنا مجبرة على قتله.. فهذه سنتي في رواياتي.

الصورة الثالثة:

نداء عاجل:
من يتكفل بعلاج العربي؟
الفقير، صاحب ناطحات السحاب و آبار البترول؟

أربعة أعوام صرفتها في كلية الحقوق بالعاصمة.

أربعة أعوام ثمن دفعته لقاء نسيان كان بالإمكان الحصول عليه بالمجان.

بدأت أخشى على نفسي من الرجوع إلى عين ولمان، التي لم تجهز بعد لتكون لي برّ أمان.

أنا لا أرمي بنفسي بين أحضان بحر شامس وأطلب النجدة بإيصالي إلى برّ الأمان، لا ألقي بنفسي في براثن الذكرى و أطلب النسيان..

إن أردت الوصول إلى برّ الأمان، لا تغادر البرّ أصلا يا لمجد.

أخشى على نفسي من التحطم فور هبوطي، فالمَدرج لا يزال قيد الإنجاز.

مازالت الذكرى تتمثّل لي غيلانا خلف أشجار غابة مظلمة..

مازال الحب يقتلني في شخص يرعبني حضوره، و آخر يحطّم أواني فؤادي بغيابه..

إلى من تكلني يا زمن؟

هذه الصورة التي بين يديّ لا تتفطن بأن صاحبها ليس جزائريّا، لو كان بلباسه التقليدي فستدرك فورا بأنه إماراتيّ.

و قبل أن أعرفه إماراتيّا، عرفته أستاذا للقانون الدولي.

سنه في حدود الأربعين، وسامته بقدر شراسته، من يعجبه الجبن يقع في مصيدة الفئران.

لا أعلم لهذا الكون عواصف أعنف قط كعواصف القدر، عواصف تجعل من حبك حبا عابرا للقارات..

كيف أنت يا ريح؟

كيف أنت يا حاملة مزني من هذا المكان.. الإمارات؟

ربما هو تعويض من عدالة السماء، لقاء أربعة أعوام كساد عاطفي..

نرجس هذا، لم أكن طالبة عنده عندما كنت في السنة الثالثة إلا أن نفش ريشه كالطاووس أوقع بي أسيرة ألوانه.

يعجبني أكثر باللباس الرسمي، أو بأي لباس المهم ليس بالخليجي.

مرة طقما رسميا، ومرة جينز وسترة جلدية، ومرة أخرى بيريه وقميص تخنقه ربطة حريرية.

وفي كل الحالات كنت سريعة الذوبان فور رؤيته.

تنبهت صديقاتي إلى أني لما أراه (نعود ما نعرفش صلاحي)، نصحنني بألّا أنجذب وراءه، فالمظاهر كثيرا ما كانت خداعة، فالمظهر أبدا لا يكون تماما كالجوهر، إضافة إلى شراسته التي جعلت من كل الطلبة يشهّدون باسمه و يذعرون أمام امتحاناته.

طيلة السنة الثالثة كانت حالتي توصف بالنزوة، مجرد إعجاب بوسامة رجل أبيض ذي ذقن تحلق يوميا، و شعر رمادي و عينين ناعستين و بطن منتفخة لكنها ذات قوام مشدود.

اتهمتني صديقاتي بالجنون لما أخبرتهن بأني سأوافق لو قايضني العميد بتمزيق دبلومي لقاء تخليه عن الأستاذ «أصيل»، لي.

أو أني لا أبالي إن شتمني عند تعمدي الاصطدام به في سبيل لمسه.

لم أجرؤ على الحديث معه طيلة تلك السنة، ليس خوفا من أن يفرغ جل غضبه في وجهي (بالرغم أن كل الكلية تقول: «اسمعو ضراطو وما تسمعوش عياطو»).

و إنما لم أشأ خوض معركة حب جديدة على ميدان الكلية لأنه لم يبق لي إلا عام واحد و أودعها.

خشيت على قلبي من أن ينفطر لفراق شخص تعلق به مدة عام.

سخرت من نفسي.. كيف تقبل بحب يبعد عنها بآلاف الأميال، وهي التي ضاع منها حبٌّ لا يبعد أكثر من ذراع؟

كيف ستعيش حبا غريبا من شخص مجهول هو اليوم في الجزائر، وغدا لا أقول فقط سيكون خلف البحار و إنما في عداد قارة أخرى خارج مجال الإرسال، حتى ذبذبات قلبي لا تصله إن حاولت أن تقتنع بأنها تستطيع أن تقتات عليها..وهي التي ذاقت حبا محليا خالصا، أقرضه بعد ذلك جناحين ليطير إلى بؤرة السواد، حيث لا يعلم العباد؟

هناك علاقات تتمنى أن يكون لها تاريخ نهاية الصلاحية كما لها تاريخ إنتاج.

***

شارفت السنة الجامعية على الانتهاء، و لم يعد يفصلني الكثير عن موعد زيارة سطيف، لا أقول موعد العودة و إنما أحبذ كلمة الزيارة صابغة على نفسي صفة الضيف.

تلقيت مكالمة من زميلة لي كانت تدرس معي بمدرسة الشبه الطبي، تخبرني أنها أنهت دراستها الجامعية تخصص علم النفس و هي الآن قد حصلت على وظيفة كماكثة بالبيت.

اقترحت عليّ فكرة استئجار محل و فتح قاعة للعلاج.

استحسنت الفكرة على الأقل لتسهيل عملية استهلاك إجازة الصيف.

التهمت ما بقي لي من العام في الكلية إلى آخر يوم.

أذكر أني قمت بتصرف غبي ذلك اليوم، و أنا خارجة مودعة الكلية والسنة الثالثة خطرت ببالي فكرة أكبر من شيطانية حتى إن إبليس لو تمثل لي بشرا لاعترف لي بفشله عن التفكير بها.

تركت رسالة تحت مقبض سيارة الأستاذ، و بإيجاز شرحت له كل النقاط على قصاصة ورق: «اعذرني على تصرفي، ما من حل آخر، هذا رقم هاتفي اتصل على الأقل لتسمع اعتذاراتي».

أردت هذه الطريقة كونها آمنة،.. و مسلية، أكلمه بعيدة عنه أفضل

مـن أن أكـون بالكليـة، و لأسـتعين بـه على طـول الصيـف و أتمكن من معرفته أكثر، إن اتصل فمرحبا به في الجزائر، في سطيف و أينما حل، وإن لم يتصل (فطريق السد اللي تدي للإمارات و لا ترد).

رجعـت إلى عـين ولمـان، مجيئـي لم يكـن مرحبا بـه، هـواء مغبر، جو مكفهر، تعسف المسؤولين و سذاجة السكان.

كـرم الضيافة المعروف لدى السـطايفيين لم تبخل به علي حبيبتي عين ولمان.

ذكرتني أنه قبل رحيلي كنت قد تركت بها جغرافيا و تاريخ.

الجغرافيـا أصبحت أطلالا و الأطلال تذكـرني بأم كلثوم و أم كلثوم تذكرني بذلك الدّب اللئيم.

لامنـي التاريخ و قال: إن ذلك الذي تسـمينه هكـذا كان لك في يوم من الأيام قمرا، و أنت مجبرة على تذكره حتى و لو كنتِ في المريخ.

صدقت، صدقت..

هذا هو القدر..

و هذا هو التاريخ..

من قال أنه بعد طول سنين ستستأجر زميلتي المحل نفسه الذي كنت (أواعد) أعمل فيه؟ ربّ صدفة خير من ألف ميعاد..

طيلـة صيـف كامـل و نحـن نلـدغ زبائننا بالإبـر، و يلدغنـي المكان بذكرى مواعدة القمر.

في الحقيقة عملت مسـتحضرة للأرواح أكثر من ممرضة. كنت أختلي بنفسي في مؤخرة القاعة و اشـغل موسـيقى جدّ هادئـة و جدّ منخفضة، الناظـر إلي يخيل له أني أتمرن على اليوغـا الصّينيّة..يتردد صدى في جوف أذني بطعـم صوتـه، هنا في مثل هـذا الوقت منذ ثلاثة أعـوام كنت أقول لك... و تقول لي...

تنهمر دموع الذكرى و الألم.

شلاّلات من الماضي البائس عاودت حفرها للخدين.

أدران الجليد اليابس عادت تطفو على ظهر مستنقع الأحزان.

قلما دامت جلسات استحضار روحه أكثر من خمس دقائق،.. حتى تقطعها الدموع.

أضطجع؟؟.. الأمر أهول.

أجلس؟.. أتذكر ما كان يقوله عندما أكون جالسة و هو واقف.

أقف؟.. أتذكر ما كان يفعله عندما أكون واقفة و هو جالس.

أمشي؟.. أتذكر قُبله.

أرقص؟..أغني، أندب، أموت، أحيى،.. أمزق ثيابي لأني أرى في المرآة وجهه و ليس وجهي

أصبحت أمقت اجترار الذكريات، و أردت أن أفطم نفسي عن الآهات، وأصبّر نفسي في الوقت الضائع بين زبون و آخر، حتى أني فكرت في تعليق لوحة على الباب أقول فيها أن العلاج بالمجان، لعل القاعة تغص بالزبائن و أطرد ما فيها من أرواح سكنتها و سكنتني. و إن لم أنسها..فستقتلني.

عندنا مثل شعبي يتغنى به: اللّي فات مات.. لكن الماضي لديّ عشبة طفيلية إن لم أقطعها من الجذور تعاود النمو و الظهور.

ورغم هذا إلا أنه لم يستح وزارني بالمحل وكأنه لا يعرف شناعة جرمه.

دخل وما من مرايا تدلني عليه، سقطت المرايا وسقطت الأقنعة التي كانت عليها ترتسم، اليوم هو يوم الوجوه، يوم الكلام الصادق الموحد بين اللسان والعيون،.. إلا قلبي نبض بنفس شدة يوم زيارته الأولى، لكنني هددت نفسي إن لم تتشجع اليوم فسوف تبقى تعيش باقي الدهر بين الحفر.

انطلق لسانه بكلام فصيح و وجه صحيح (كالكسرونة):

- السلام عليكم.

- و عليكم السلام.(بنفس النبرة التي أرد بها على الزبائن)

- مبروك العيادة.
- بارك لزميلتي (اليوم يبدأ العمل بمبدأ الغباء و الكذب ما دام لم ينجع معه مبدأ الذكاء و الصراحة).
- إذن أنهيتِ دراستك؟
- نعم و سأبقى هنا كي مسمار جحا.(بشجاعة)
- و ماذا تعملين الآن؟
- سنة أولى بطالة.
يسكت قليلا و بعد ابتسامة فاترة يقول:
- جئت على جال وجهك، لو لم تكوني هنا لما جئت.
- إن أردت بعض الأدوية تفضل، أما إن أردت أخذ إبر أو تقيس الضغط فلا أستطيع.

للحب ميزة غريبة، الشخص نفسه الذي كنت تقبّله و تحتضنه أيام السّعد، تقرف حتى من لمسه أيام البُعد!!

يرد بوقاحة:
- يقولولها الممرضة.. سمرة و لبستها بيضة..
هي تداوي في المرضى.. و حبيبها مجروح..

ناديته لأول مرة باسمه الحقيقي، فاليوم انتهى عهد التزييف، ثم أردفت صارخة:
- أنا ذهبت إلى العاصمة مضحية ببلادي سطيف، مضحية بأحبابي و أهلي و ناسي، بتّ على الطّوى عدة ليالي، دفعت الثمن غاليا في سبيل نسيانك، و هأنذا قد نسيتك فلا تحاول أرجوك تذكيري..
تقدم نحوي حتى لم يتبق بيني و بينه قدر شبر، بدأت عيناه تمارس علي تنويمه المغناطيسي، تقدم أكثر ليقبّلني، لكني منه نفرت، لم أنفر

منه لأتحاشى قبلته، بل صعقت من رائحة العطر الرخيص الذي مازال يستعمله..

أتراه مازال يواظب على عدم لبسه السروال الداخلي كمواظبته لاستعمال هذا العطر النتن بعد كل هذا الزمن؟

تحرك لسانه بحجج واهية:

- تعلمين أنها رغبة أمي.

- تبّا لأمك، تبّا لسلطتها في البيت في حضرة أبيك و سلطتها عليك رغم أنك رجل.

ثم استرسلت بكلام متواصل كالوابل:

- ألم تقل لي أن أمك بقيت لها أيام معدودة، لكني اليوم أراها تهدّ جبلا و تنافس سيدنا نوح في طول العمر، أما الستّ حرمك فبشرها مني بانتقام أليم حتى و لو بعد سنين.

- انتقمي مني، و ما دخل زوجتي؟

- لقد انتقمت منك و ما زال المزيد، ألست القائل أنا و أنت واحد؟ إذن لقد انتقمت منكَ على حساب نفسي..

و أنا أشير بإصبعي إلى الباب: إذن غادر في الحال.. فالتهديء من روعي أمر محال.

يرد عليّ بصوت لطيف و عينين (مسكينتين):

- فلتعلمي أني لم أحب قبلك و لم و لن أحب بعدك،.. حبنا أكبر من أن تحصره أسوار الزواج أو يهدمه زواج.

ثم يضيف بعد هنيهة:

- أحسدك على هذا النسيان الخارق الذي تتمتعين به.

- بل أحسدني على هذه الأخاديد التي حفرتها دموعي على الخد.

يغادر كالكلب المهزوم وسط جوّ جنائزيّ، و هو يمشي إلى الوراء ببطء و ينظر إلي.. يظن المسكين أني لازلت أتقن لغة العيون.

لكن جوابي كان باللسان، بيت من الشعر لإبراهيم بن أدهم يكفيه، وسيبقى يتذكره ما دام حيّا:

وإذا غلا شيء علي تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

يظنني حمقاء سينطلي علي تثعلبه أو يرق قلبي لدموع التماسيح.

أخبرتني صرهودة – رسول أمي الأمين – لما سألتها عن أحوال بيت الرجل خضرة، فقالت لي بأنه أصبح لكنّتها طفلان و منذ ذلك الزمن اعتمرت عمرتين (شيء طبيعي فالكل امتهن ضرب الخفيف).

و لما ختمت بقولها «إذا تفاهمت العجوز مع الكنة، يدخل إبليس إلى الجنة»، فهمت أنه يعيش الويلات في البيت و أنه يعاشر خشبة.

لهذا السبب قد يكون رجع إليّ..

أو ربما لأنه رأى الدنيا ضحكت لي.

* * *

انتهت العطلة الصيفية بصعوبة، منذرة بقدوم موسم جديد..

حزمت حقائبي راجعة إلى العاصمة لأنهي ما بقي لي من الدراسة ولأستحم نهائيا من درن ذكرياتي.

أفضل مضاد قد ينصحك به الصيدلي للذاكرة، أن تحقن نفسك بالنسيان أو تحارب ما يجعلك تتذكر بما سيجعلك تنسى، عن طريق حبوب تتناولها قبل وجبة التذكر. و إلا سيبقى أمامك سوى محلول آخر تتجرع مرارته عند كل نزلة وِحدة أو غربة..

أعترف أني أكلت الخبز اليابس، أعترف أني شربت ماء الحنفية ذا الطعم السّيئ، أعترف أني بكيت.. و أني كنت أشتاق إليه.

وأعترف أمام الله أني كنت أحمله مسؤولية كل هذا،..لهذا كرهته، ما عدت أبغيه، أمقته، أشعر بالغثيان عند سماع اسمه، و أتقيأ ما أكلته منذ رمضان الفارط عند رؤيته.

هذه هي لعنة الحب إن لم يحتفظ لك قدرك بتعويذة ما تقيك شرها.

القدر...

لا تتواكل على القدر.

بل توكل على رب القدر، لا تسأله فقط أن يلطف فيه عليك، بل اسأله ردّه و تبديله إن كان فيه ما ليس بصالحك.

أحيانا يتمنى المرء أن يطّلع على القدر و لو قدر لمحة من البصر، علّه يتجنب ما وقع له أو يُحدث ما لم يحدث له..

لكن النعمة الحقيقية تكمن في جهلنا لمصيرنا، بهذه النعمة استمرت الحياة..

القدر...

من منا اطلع على ما وراء القدر؟.. إن كنت أجهل حتى ما وراء باب القاعة؟

.....

فتحت باب القاعة التي فيها أدرس،.. و أجد الأستاذ أصيل هو من يتربع على المكتب.

جحوظ عيناي توحي بأني صعقت بألف كيلوفولط تركتني صنما للحظات..

سارعت بالجلوس قبل أن يتفرج الجميع على نشرتي الجويّة، لكن صديقاتي الخبيثات لمحتهن يتطلعن إليّ وكأنهن انتظرن دهرا لمعرفة ردّة فعلي..

لا يمكن أن أنفي أني قضيت ساعة و نصف و أنا منتبهة لا ينطبق لي جفن،.. ليس للدرس.. و إنما للشفتين الرقيقتين الحمراوتين اللتين يملكهما ذلك الجالس خلف المكتب.

كما أؤكد أني تمكنت في تلك المدة الوجيزة تسطير جدول لسنة مالية أقصد كاملة لكيفية التعامل معه في حالة ما إذا جلبته واستخلصته لنفسي..

انتهت الحصة و عند الخروج ناداني..

ذهبت إليه عند المكتب و أنا أنظر إلى صديقاتي و أخبرهن بحاجبيّ أني ظفرت به.

وصلت..

.. أشبعني من غطرسته و شراسته لأني تأخرت عن حضور الدرس، مما جعلني طريحة مقعد..

ذهبنا إلى النادي و صديقاتي يدفعنني دفعا، و أنا صامتة وسط سخرياتهن و تعليقاتهن.

منذ ذلك الحين لم أعد أطيقه عند رؤيته، و لا أعير اهتماما لدرسه طيلة شهريين متتاليين.

جاء وقت امتحان مادته، أذكر أني أجبت له بكلام ليس من مستوى قانونيّ في السنة الرابعة، لكنه فاجأني بتلك العلامة التي أعطاني..

في الحصة الموالية طلب مني البقاء في القاعة عند انتهاء الدرس، انتظرت مرور الساعة و النصف بفارغ الصبر، و أنا أسأل نفسي ماذا يريد مني؟

حقيقة ما راود فكري شكّ قط لعدم وجود و لا حتى شعاع خافت استدل به إلى معرفة قصده من بقائي..

ألأسامحه مثلا؟؟

أم لأفتح معه صفحة جديدة، دون خلافات؟

أم تراه طلبني لسبب بيداغوجي، أو في إطار علميّ لا أكثر و لا أقل؟

خرج الجميع، و صديقاتي من النافذة يسترقن النظر، لم أبرح مكاني

حتى جاءني، سألني بلهجته التي لا يستعملها إلا نادرا:
- اش لونك؟ شو اخبارك؟
- الحمد لله (طال عمرك)..
- لماذا لم تأت إلي عند المكتب؟
أجيبه بخوف مستتر:
- أمرتني بالبقاء في القاعة، و ليس أن آتي إليك عند انتهاء الحصة.
- ممتاز، الوقوف عند الكلمات سمة القانونيّ الناجح.
يصلح من جلسته و يعدّل في نبرة صوته ليضيف:
- أردت أن أهنئك على العلامة التي تحصلت عليها و نادرا ما يحصل عليها طالب عندي.
أعترف له بشجاعة:
- في الحقيقة لم أكن أتوقعها لا لشيء إلا لأن إجابتي كانت عشوائية.
- و مين اللي قالتش بأن العلامة كانت على الإجابة؟
- لم أفهم قصدك يا أستاذ.
- أنت ما جاوبتين بجدية بسبب كرهتش لي من يوم وبختتش، وثانيا..

يدخل يده إلى جيبه ليخرج ورقة بيضاء و يواصل:
- ...لتشابه هذا الخط مع خطتش.

بقيت متسمرة في مكاني، فالمتهم لا يمكنه الإنكار عند وجود الدليل القاطع، لكني حاولت نفي التهمة و لو بأمر خيالي.
ما من بد فالذئب أخرج من نفس الجيب هاتفه المحمول شكل الرقم ليهتز هاتفي صارخا من داخل حقيبة يدي ينادي: نعم أنا صاحب هذا الرقم.

أرجع هاتفه إلى جيبه و هم بالخروج، قائلا لي عند وصوله الباب:
- سأنفذ ما طلبتهِ مني.
و غادر.
اندفعت بعده صديقاتي ليجدنني غارقة في الصمت شاردة الذهن، باردة الأطراف.
في تلك الليلة نفذ وعده الذي كان في يوم ما طلبي. اتصل بي:

مايعجبني في الرجال الوفاء بالوعود، الصفة التي قلما نجدها اليوم، والتي يملكونها حصريا من دون النساء..
لكن خسارة...
فالرجال يوفون بوعودهم التي قطعوها مع النساء، لا لشيء إلا لنيل مآرب أعلمها أنا وأنت وهذا وذاك.. جيدا.

- ألو..
- اش لونك؟
- يا أستاذ حاول أن تتحدث معي باللهجة الجزائرية و إن استعملت الفصحى فلا أمانع وإلا سيكون جوابي بأني صفراء على قدر سؤالك.
- لا أريد استعمال اللغة العربية الفصحى لأنها ستضفي على اتصالنا جو الكلية.
والآن: ايش بدك تقولين، كلي آذان صاغية.(من الواضح أنه لا يحب المقدمات)
ارتبكت قبل أن أرد:
- أردت الاعتذار منك فقط يا أستاذ.
- أنا لا أريدك أن تستحضري جو الكلية رغما عني، لا تناديني بأستاذ.
- حاضر يا أسـ..

- يا أصيل (مزمجرا).

- واضح أنه ليس من السهل الهروب من بين مخالب شراستك كما يقولون لهذا سأقر بالحقيقة مادامت أوحد باب:

يرد و هو يقهقه:

- أهكذا حقا يقولون؟

ثم يواصل:

- شو اللي دفعتش تلصقين الورقة على مقبض الباب؟ و ليش تريدين مني أن أتصل بيتش؟

- كانت مجرد نزوة إعجاب عابرة، و الآن قد مرت عليها شهور.

سألني و هو يغير نبرة صوته:

- إعجاب؟.. بمين؟؟

سكوتي أوحى له بأنه هو المقصود. و ذكاؤه استطاع أن يجيب له على حزمة أسئلة كان بإمكانه أن يطرحها عليّ لكنه عرف بأني لم أخطئ السيارة و أعلم يقينا ما نوعها و لونها و أين يركنها.

قطع صمتي بسؤال مباغت:

- ليش ما صارحتيني؟

- ها قد تركت لك رقم هاتفي لذلك..

- قصدي: وجها لوجه.

أجته منتفضة:

- أبدا.. سأبدو حمقاء لو فعلت،. أضف إلى هذا السمعة الجيدة التي تتمتع بها داخل الكلية.. اخترت الهاتف لأنه أأمن طريق للوصول إلى أصيل..

- ما أحلى اسمي و أنت تتلفظين به..

أدهشني تحوله المفاجئ من غول يخيف الكلية إلى شاعر يتغزل بامرأة. قاطعته حتى لا يحمّل الموقف أكثر ما يطيق:

- لكن لم تخبرني؟
- عن ايش؟
- لماذا لم تحاول الاتصال بي وقتها، و بقيت تحتفظ بالقصاصة إلى اليوم؟

أجابني و كأن سؤالي أربكه:

- عندما نريد أن نعلم الصقر كيف يصطاد أرنبا، لابد لنا في البداية أن نغمض عينيه...

حقيقة، لم أفهم شيئا، جوابه لم يكن دقيقا و لا جازما، حتى أني حاولت لأكثر من مرة استدراجه لكنه استعسر، و عن الجواب استعصم..

بعد جزر و مد، و بين أخذ و رد، أمرني في الأخير بأن أتصل به ما دام رقمه بحوزتي ليساعدني في دراستي و ليرفع علاماتي أو حتى إن احتجت إلى أي شيء آخر.. (تحت هذه العبارة ضع خطا سميكا يا لمجد).

محذرا إياي ملمحا بأنه يمحي كل الأسماء التي لم تعد تتصل به، من هاتفه الجوال كما يحلو لأهل الخليج تسميته.

في الغد اتصلت به لأجنب رقم هاتفي من المحو التلقائي، لكنه فسر اتصالي و سؤالي عنه و عن صحته بـ «الشيء الآخر»..

اصطحبني بسيارته إلى شقة بأحد أحياء العاصمة الراقية مدعيّا بأنه سيعرّفني بمنزله الجزائريّ، لما وصلنا وجدت أنه محق بأن المنزل موجود بالجزائر لكن عندما تدخل تذهب أنت إلى الإمارات، الأثاث الفاخر، المرايا البلورية، المزهريات الكريستالية، الألواح الزيتية، والأفرشة الحريرية..

جلس على أريكة تصلح للنوم أكثر من أن تكون للجلوس و أمرني بأن أذهب إلى المطبخ و أحضر فواكه و شراب.

و لما ولجت المطبخ أصبحت و كأنني قروي في المدينة، لم أعرف كيف تفتح الثلاجة، و لم أدر هل تلك الفواكه حقيقية أم بلاستيكية.

دخلت عليه بعدما تمكنت بصعوبة من إحضار طلباته، وجدته قد استبدل ملابسه بالزيّ الخليجي التقليدي.. ليس اعتباطا.

وما إن لمحني ناداني:
- ضعي الصّينية على الطاولة و تعالي اجلسي قدامي.

جلست وبدون مقدمات قبّلني و وقع علي كوقوع الغضنفر على صغير الغزال.

أدركت وقتها أنه لا يجبذ إطلاقا المقدمات، و لعلها سبب رسوب الكثير من الطلبة في امتحاناته، فمنذ نصحي لصديقاتي بعدم إدراج المقدمات في إجاباتهن، حتى تغيرت علاماتهن بعد أن كانت كأنها درجات حرارة لمدن روسية في فصل الشتاء..

رغم أنها كانت أمنيتي منذ شهور أن أشم و لو رائحة جسده، إلا أني اندهشت لتصرفه و قلت:

- يا أستاذ.. أقصد يا أصيل، عندنا مثل يقول: «عرضناه للبربوشة، مد يدو للحم»، على الأقل مقبلات ثم الطبق الرئيسي..

- صحيّا تناولي اللحم قبل البربوشة التي لا أعلم ما هي..

ثم باشر أكله بشراهة و كأنه قادم من إثيوبيا النساء..

و في لحظة ما، وجدت برج دبي أمامي أسدل عنه الستار يتوسطه برج العرب(ي)، اختلطت الأمور عليّ و لم أعد أدرك أعين الفوارة في الإمارات أم أبراج الإمارات عندنا بالجزائر؟

بدأت أتعلم شيئا فشيئا..

فرب ضارة نافعة..

فالخمار(القنور بلهجتي، الشماغ بلهجته) لايزيد عقله إلا تخمرا..

أما الجبة البيضاء فبساطتها و خلوها من مضافات الأزياء، تنم عن بساطة و خلاء الصحراء التي جاء منها، و طولها الفارع يشبه أبراجهم التي تضيق كلما ارتفعت..

لباس العربي هو الأسرع انسدالا.

يحضرني قول لصديق فرنسي عندما قال عن هؤلاء خصوصا: نحن نخاف من هؤلاء أصحاب العباءات وليس أنتم، وعن العرب عموما بقوله: أنتم العرب لو كانت هناك عذراء على سطح القمر، كنتم أول من أقمر..

أفرغ كل ما في جعبته من بترول جاء به من الخليج، و لم نستفق إلا عندما سمعنا طرقا بالباب.

أسرع بإدخالي إلى غرفة النوم و ذهب ليفتح الباب.

سمعت شخصا أدركت فورا أنه صديقه لأن له نفس لهجة الكلام، بقيت أنتظر داخل تلك الغرفة الفخمة أتفقد أغراضها حتى جاءني ليعلمني بأن صديقه قد غادر.

و أنا ألبس ثيابي رحت أسأله:

- هل تعني كلمة «حجّي» أستاذ بلهجتكم؟ لأننا نحن الأستاذ ندعوه بـ«الشيخ».

أجاب ساخرا:

- لا، حجّي لها نفس معنى حاج.

- و لماذا يناديك صديقك بالحاج؟

- لأني حاج فعلا.

توقفت عن لبس ثيابي و الدهشة تغمرني حتى فاهي، دهشت من حج يواري شعوذة أشخاص، ومن حج لمجرد اكتساب ألقاب..

و استطردت في أسئلتي:

- من خلال صديقك فأكيد من أن لك أهلا هنا بالجزائر؟

- لا، ليس لي أحد هنا غير هذا الصديق الذي يعمل في شركة بترول.

- و ماذا عن تلك الصور المؤطرة في غرفة النوم؟

- تلك لأولادي.

أصهل بحيرة:
- متزوج؟
- بثلاثة نساء و لي ثمانية أطفال مع أن إحداهن لم تنجب لي.
- الله يخرب عقلك، ولماذا أنت معي الآن؟
- طالما ردّدت لزوجاتي مثلكم الجزائري: «ثلاث نسا والقربة يابسة».
لم تعد لي رغبة فيهن، الأولى تقاربني في السن و الثانية لم تنجب لي و الثالثة تزوجتها مرغما بحكم العادات و التقاليد، ما المانع من تذوق النكهة المغاربية؟
- و ماذا لو علمت زوجاتك، و أطفالك؟
- نحن في الخليج مادامت زوجاتنا و أطفالنا في نعيم فهم لا يكترثون..
أخذت حقيبة يدي منذرة بالخروج، لكن كلامه لحق بي:
- الوقت لا زال مبكرا إبقي قليلا فأنا معك اليوم لا أحس بأني غريب، و إن كنت لا تمانعين نامي هنا الليلة و غدا صباحا نذهب سويا إلى الكلية.
هممت بالخروج و أنا أقول له ساخرة:
- نتوما أهل الخليج شابعين و في الوقت نفسه جايعين.
تسربت كلمة صارخة من شق الباب:
- سأطلبك غدا بالهاتف..

و بالفعل رن هاتفي عند منتصف النهار، و لما أجبت قال لي بكلام مختصر أنه في موقف الكلية داخل السيارة.
فتحت الباب و ركبت، كأنه لم يحس بوجودي لم يخرج رأسه من داخل الجريدة.

قاطعت تصفحه:
- نحن هنا..
- صباح الخير، كيف حالك؟
- كلام أكاديمي!(مستغربة تغير لهجته فجأة) ثم أضفت:
من ربي بخير و من العباد شوية..
- لماذا؟ (و عيناه لا تزال متعلقة بالجريدة).
- البارحة لم أنم طوال الليل، و أنا أفكر في ما حصل بيننا...
أنتبه لشرود ذهنه مع الجريدة، و أصرخ:
- لماذا طلبتني إذن و أنت تجالس الجريدة؟
- لا، و إنما لفت انتباهي هذا الرجل و كأني رأيته من قبل هنا في الكلية.

تسللت بنظري إلى الجريدة لأجد قضية أمين المسكين أثيرت من جديد، و لكي أشتت شكوكه أسرعت في الكلام:
- هذا المتهم أملك دليل براءته.
يطوي الصفحة ثم يعيرني نظره:
- كيف أيتها المحامية؟
- لو ينتظروننني حتى أصبح محامية و يحاكمونه، سأرافع عنه وسأثبت للعالم بأنه مظلوم، مغدور به..
- أنت تتكلمين بالعاطفة أكثر من القانون.
- لا، هذا النوع من المتهمين أعرفه، لو تبحث في ماضيهم تجدهم لا يملكون قوت يومهم، يستغل الكبار فقرهم فيغدقون عليهم بدريهمات ليقوموا بجرائم نيابة عنهم، يا أصيل أنت أستاذ و تعلم يقينا أنه «ياما في السجن من مظاليم».
- جميل، والآن بعيدا عن القضايا و المجرمين، قولي لي هل أعجبتك الهدية؟

أسأله بدهشة:
- أية هدية؟
- تركتها البارحة في حقيبة يدك.

و بعد تفتيش بسيط استخرجت منها سوارا بلاتينيا مرصعا بالألماس، نظرت إليه مستفسرة:
أجاب:
- هذه مجرد ذكرى من الخليج.

أدركت أن السوار ليس من الجزائر فلا أحد يشتريه مهما كان دخله، و أدركت أنه طريق آخر على معصمي الآخر لرجل أبى إلا أن يأتيني من الجانب الآخر للخليج.

سألني بحذر:
- أظن الهدية لم تعجبك؟
- لا، ولكن ثمنها باهظ.
- الناس من معادن يا عزيزتي، فلا يغلا هذا القصدير على ماستي..
و الآن: قولي لي أين سنذهب؟
- لا، إذا كان حبيبك من عسل لا تلعقه كله.
- تعلمين أني أحببتك و لا أصبر على فراقك.

* * *

هذا البغل (حاشاكم) لم يكن يحترم الحب.
لا يتقن اللعب.
أين يمكن لامرأة أن تجد رجلا بكامل الأوصاف؟؟
رجل عرفته يحترم الحب و يتقن اللعب وخائن. و آخر وفيّ و حيوان.

ألا يوجد رجل وفيّ و في هيئة انسان؟؟؟

اذكـر يا لمجد أنني منذ أن واعدته ذلك اليوم لم يحصل بيننا لقاء آخر، لأني أحسسـت بإهانة مكنية من طرفـه، لا يتصل بي أبدا و عندما يفعل، يطلبني، ويا ليته كان يطلبني كشخص بل يطلبني كجسد.
شارفت السنة بل المرحلة الجامعية على الانتهاء و منذ ذلك الوقت إلى اليوم لم يزر رقمه شاشة هاتفي، تأكدت حينها أن رقمي قد أُسقط تلقائيا من ذاكرته و من ذاكرة هاتفه.

هذا نصب آخر لرجل يدخن النساء.
ضعه على الطاولة و أكتب بطاقة فيها:
الاسم: شهواني، اللقب: حيواني، المهنة: «حاج»..

ورثوا تطاولهم في البنيان عن عشقهم للنساء.

الصورة الرابعة:

لو مُنح لك اللونان الأبيض والأسود،
وخيّرت بأيهما ستبدأ حياتك و بأيهما تفضل أن تنتهي؟
كيف ستعيش؟..
.. إن بقيت لك رغبة في العيش أصلا..

أما الصورة الرابعة، فهي لشخص عمره آنذاك لا يتعدى العشر سنوات، و إن قلنا طفلا فهذا يعني أن الصورة لا تدل على شيء عدا البراءة.

هذا الشخص لم أدر حتى كتابة هذه الأسطر إن كانت حياتي معه ستكون سعيدة؟ أم لها هي الأخرى النهاية المؤلمة نفسها؟

لا تسألني كيف تحصلت على هذه الصورة.

وإنما سأجيبك عن سؤال لم تطرحه:

نعم أحببت صاحب هذه الصورة القديمة منذ أزمنة غابرة، لو بدأت معه مسيرة عمري حتما لم أكن أمر بتلك العصور المظلمة، و لكنت قد عشت معه اللحظة أقصد هذه اللحظة في بيت واحد مستقرة.

لكن لعل..، بل أكيد للقدر دراية بأن هذا الطفل لما يكبر سيسأم من النساء.

لم يشأ أن تكون حياته سوداء وبيضاء شبيهة بالصورة من دون ألوان.

يعيش وحيدا بإرادة منه قبل أن يتوحد بإرادة امرأة.

حديثي معه و إن قل إلا أنني تمكنت من الاطلاع على فكره و فك شيفراته.

لا يشم النساء.. فهن في نظره مصدر خام للغباء، منبع سخيّ للتبييض، يعتقد أنه يمكن للرجال الاستغناء عنهن، و هن لا يمكنهن الاستغناء عن الجنس الخشن، و إلا ما تفسير تحديد الرجل لشروط ومواصفات دقيقة للمرأة حتى يقبل أن تسجن معه في قفص واحد، في حين أن المرأة همها الوحيد الظفر برجل أيّ كان (يرون الشجر رجالا).

حتى العلم هو الآخر وهب للرجل آلة للطبخ، و آلة للغسيل، وأخرى للإنجاب، لكنه عجز أن يصنع للمرأة بديلا للرجل.

لا يحبذ الزواج.. يراه مقبرة للحب من تجربة الذين سبقوه، و إن فعل.. فبعد آلاف السنين.

لا يرغب في الأطفال.. الجنس البشري غير مهدد بالانقراض، يعتقد أن إنجاب دببة الباندا أولى من الأطفال إن كان ليس فيهم صلاح.

(وبالرغم من هذا إلا أني لازلت أخشى أن يقع هذا المنتوج بين أيدي الأطفال).

هذه الصورة هي لك أيها الجامعي الوسيم الأنيق.

أنت يا لمجد.. سأحييك بعدما أمتك..

لا تنصدم، لا تندهش، إبلع ريقك و اهدأ..

هذه الصورة أُخذت لك منذ سبع و عشرين سنة..

و حبي لك عمره إحدى عشر سنة..

يا حسرة على العباد..

عندما تقاس الأعمار بالسنين.

لا أريد أن أورّطك باعترافي هذا، لا أريد أن أحمّلك ما لا تطيق، لا أريد أن يلمس مشروعي هذا الأطفال،..

لا أريد حبا.

هذا الاعتراف الأخطر.

لا أريد حياة توهب من موت..

لا أريد رجلا تصدقت به عليّ فطرة الحياة.

لا أريدك أن تتذكرني ككاتبة فاشلة، تذكرني فقط كلما مررت بعين الفوارة أو إن منها شربت.

أريد منك أن:

تحتفظ بتلك النصب الرجالية..

وسأحتفظ أنا بالأيقونة الفضية، الساعة الذهبية و سوار الألماس،..
لأتذكر رجالا.

قادني أحدهم من نحري والآخران من الأطراف.
و هذا الجسد المدينة، الجسد التمثال، الجسد الطاولة..
.. كان لهم طريقا.

لمجد.. اعذرني لأني بعثت فيك الحياة من جديد..
إن أردت أن أميتك ثانية فتأكد أني لن أستطيع، فالموت هذه المرة أريده لنفسي، لكتبي، لشخصيات و أبطال رواياتي...
فإن كنت أريد أن أموت قبلك، فيجب أن تعيش بعدي..تنجب ورثتي، و تقرأ للعالم قصتي، و خلّد ذكرى دخولك روايتي و ذكرى خروجي من الحياة..
لابد أن تثري مذكرتك بالأرقام المميزة.
و احمل اللواء عني.. هذه ليلتي..
ليلة اعتزالي.
لمجد..
لا تنس أن تخبر الناس بعد هذا الاعتراف... أني بكيت.

تعالوا لنقشر البصل:

المجد للرجال.
الموت للأطفال.
الرفق للقوارير.
و اللعنة على النساء.. الغبيات.

لكن يجب ألا نكذب على أنفسنا، الرجل يبقى رجلا ذكرا مهما رخص، و المرأة تبقى امرأة أنثى مهما غلت.

يسعدها و تتعسه (هذه هي سنة الحياة)، لا تغضبن مني، فإن أراد الرجل إسعاد المرأة لا بد له من: يتفسح معها، يدعوها للمطاعم، يشتري لها الحلي و اللباس، يركبها أفخم سيارة و يسكنها أفسح بيت دون أن ينسى طبعا إشباعها بواجبه المنزلي و تبقى القائمة مفتوحة و رغم طولها فهي مهددة بالإنكار من طرفها في رمشة غضب..

ولتسعد المرأة الرجل.. يكفي أن تتركه و شأنه.

لهذا إن أردتن من الرجال أن يستمعن إليكن باهتمام و تركيز تام، فليس أمامكن إلا طريقة واحدة آتت أكلها لدى من جربنها، و لم تسجل أية أعراض جانبية لحد الآن:

تظاهري بالنوم و تكلمي كما شئت..
أما أنتن أيتها النعاج، لا تبكين على ماض مات.
نعم الحب من ذهب، ثمة رجال يغرقوننا بهداياهم.
و كذلك النسيان و الكره من ألماس، ثمة خونة يثروننا بفراقهم.
إن أردتـن ألا تبكـين عند تقشـير البصـل، ارتدين واقيـا و لا تقربن ساحة الرجال.

يا رجال و نساء العالم.. اصرخوا و قولوا:
سنعيش رغم كوفي كوجيا الأحلام.

تمت في: 25/ جوان/ 2010
سفير القمر الصامت

الفهـرس

الإهداء..05
تقديم..07
الصورة الأولى: الصامتة.................................17
الصورة الثانية..141
الصورة الثالثة..161
الصورة الرابعة...183

سفيان مخناش كاتب جزائري

- "سفيان مخناش" الروائي الجزائري الصاعد الذي راح يخط بيمينه نصا معتقا بروائح الحب والخيانة، ماسكا بشماله أربع صور للمعاناة وللدمع وللألم وبقلم "رصاص" صوّبه في أحايين كثيرة على تلكم الأحكام القاتلة المقولبة في مقولات دينية واجتماعية جاهزة لا تسمح أبدا بالبوح في زمن المستحيل

نصر الدين نواري / العرب اللندنية

- عودتنا الجزائر على انجاب روائيين من الطراز الأول وهاهي مرة أخرى تلد لنا روائيا شابا أظهر من خلال روايته الأولى أنه ورث سر الكتابة السردية في الجزائر ومثل بامتياز جيله من المبدعين بروايته لا يترك في متناول الأطفال
سفيان مخناش اسم اخر يشق طريقه نحو الرواية العالمية منطلقا من الجزائر

السعيد الخيز مدير نشر مجلة أوراق الثقافية المغربية

مكتبة نوميديا

ISBN: 978-9947-863-42-8